مصطفى السيد سمير

حارس ليلي للسماء

قصص

جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة 2012

حارس ليلي للسماء

مجموعة قصصية

مصطفى السيد سمير

تحرر

عندما وضعت يدي فوق جيب البنطلون واكتشفت اختفاء حافظة النقود.. فوجئت بفرح غامر يملأ روحي مثل موسيقى بيانو خافتة تنبعث من المنزل المجاور..

– أنا حانزل هنا .. معلش نسيت الفلوس..

هل كان فرحي لأنني لم أعد مضطرا لاستكمال طريق الأتوبيس حتى المنزل أم لأن أحدهم كان قد حمل إلي أخيرا الحل الوحيد الناجح الذي لم أفكر فيه.. هبطت من الأتوبيس.. وضعت يدي في جيوبي مرددا لحنا راقصا.. أغمضت عيني متجاهلا السيارات المارقة كالحلم في ميدان التحرير..

قطعت اللحن فجأة وساورني حزن مبهم حين تذكرت أن هذا اللص لم يتم صنيعه للنهاية ويأخذ سلسلة المفاتيح وعلبة السجائر والتليفون المحمول.. لكنني راوغت حزني حين نظرت إلى الأتوبيسات العديدة بثقة والتي لا بد تحوي الكثير من اللصوص الطيبين الذين من الممكن أن يقوموا بهذا الدور..

فكرت لو أنه قد آن الأوان كي أتحول إلى طائر.. فيجب علي أن أتخلص من ملابسي سريعا.. فهذا القميص الأبيض السادة سوف يعوق بشدة حركة الأجنحة..

تطلعت إلى الحديقة الدائرية التي تتوسط الميدان / مبنى المجمع / واجهة مسجد عمر مكرم / بدايات الشوارع الموغلة عميقا في وسط البلد.. تأخذني عيناي حتى بداية كوبري قصر النيل.. كانت شمس الغروب البرتقالية قد تجزأت وهبطت إلى الميدان متنكرة على هيئة بائعي الفل وعساكر المرور وسائقي سيارات الأجرة الفارغة.. محاولة مصادقة العاشقين الذين يملئون الميدان والكوبري في مثل هذه الساعة..

أغمضت عيني عائدا إلى لحني الراقص.. بينما شرعت أصابعي في فتح أزرار قميصي الأبيض السادة.. أدركت أنه توقيت جميل يصلح لبداية قصة حب.

كوفية زرقاء لهلال وحيد

– 1 –

الشحوب للخائفين.. للغرقى.. للمناديل التي تلوح للسفن المغادرة..
لماذا لا يختار القمر لونا آخر.. قد يكون الوردي الفاتح لونا مناسبا..

بالسماء هلال.. لا تدري لماذا لا ترى البدر في الأيام الأخيرة إلا نادرا.. في انتصافات الشهور كثيرا ما تنسى أو تنشغل أو تكون السماء غائمة.. حتى لم يعد يفاجئها ذلك.. مثل أشياء كثيرة أخرى.. لم يعد يفاجئها تغير لونها ولا شرودها منذ عدة أيام.. أقنعت نفسها بذات المبررات المقنعة دوما.. إرهاق في العمل.. وبرودة يناير.. لا تذكر نفسها بأن أجمل أيامها كانت أيام يناير خاصة قارسة البرودة منها حين تحترف غرفتها الدفء..

الأشجار التي تميل على النوافذ.. وكبائن الهاتف.. مؤكد أنها تبوح بسر ما ..تواطأت العصافير على كتمانه..

تغلق النافذة.
تعود إلى الفراش.. أجمل ما في غرفتها أنها ترى القمر وهي نائمة.. تتذكر أمها.. يؤلمها أن الأمير لم يهتد أبدا إلى صاحبة فردة الحذاء الوحيدة.. لأن

النوم كان / مازال يغلبها دائما قبل أن تصل إلى هذا الجزء.. فيتسلل القمر.. خارجا من النافذة على أطراف أصابعه .

ما رأيك في المقايضة..
أمنحك حمرة وجنتي.. وتضع أصابعي مكان أشعتك.. التي تلمس الآن وجه حبيبي ؟؟

– 2 –

الأحمر
الأصفر
الأخضر
لا وجود للأزرق.. رغم أنني أعشقه .

لم يعد يفاجئها انزعاجها المبالغ فيه من طول الطريق حتى عملها.. أقنعت نفسها بأنها تشعر بالملل منذ فقدت شرائط فيروز ونجاة ومنذ تعطل جهاز التدفئة في سيارتها في هذا الوقت تحديدا ومنذ تم تشديد العقوبة في قانون المرور الجديد على التحدث في الهاتف أثناء القيادة.. ثمة تواطؤ خفي على تركها وحيدة فتهم بالبكاء.. يناير هذا العام جاء قاسيا..

في كل إشارات المرور سأضيف دائرة زرقاء .. وليكن معناها : تطلع إلى وجهك في صفحة السماء .

تلتفت.. بالسيارة المجاورة سيدة في أوائل الخمسينيات تقود سيارة تشبه سيارتها تماما.. تدخن بلا اهتمام وتنقر بيدها الأخرى على مقود السيارة بنفاد صبر.. تنظر لأعلى كذلك.. ربما تتأمل الإشارة هي الأخرى..
يسكنها انقباض مفاجئ فتطفئ سيجارتها في المطر وتصرف وجهها..

لا ليس هكذا..
هذا زجاج سيارتك.. السماء شيء آخر.. هناك.. يتغير لونه من الزرقة إلى السواد.. ولا ينكسر.. وليس به مسّاحات لإبعاد مياه المطر..
مادمت لم تصدقي.. سأنزع الدائرة الزرقاء من إشارتك .

– 3 –

عند منتصف النهار تطلب فنجان قهوتها.. تترك أوراق العمل وتتقدم إلى النافذة.. لا تزال تمطر.. القطرات الضئيلة منذ الأمس تصر على وخز الذاكرة.. تتخيل رائحة النجيل بالأسفل فتصعد إليها عبر النافذة.. تحملها على أن تخلع حذاءها وكوفيتها الزرقاء وتسير حتى حافة الكورنيش..

الكوفية الزرقاء لن تتحدث إلي أو تبلل النجيل الناشف بداخلي.. بالتالي فهي لن تصلح كبديل على أي حال.. كنت أدرك ذلك من البداية ولكنني – لا أدري كيف – وافقتك على الرأي.. كنت أدري ذلك منذ كنت في العاشرة حين تم إلغاء رحلتنا إلى الإسكندرية.. فلونت غرفتي بالأزرق الدافئ.. انتظرت حتى المساء.. ثم كسرت فرشاتي في إحباط وبدأت في البكاء عندما لم تنبعث من الجدران رائحة البحر..

تفتح النافذة.. وتترك روحها للهواء..

حين تمطر أكون سعيدة.. فهي المرة الوحيدة التي يتلاقى فيها وجهانا : أنا.. والماء.. يمكننا العناق.. اللعب.. إلقاء الوسائد على أحدنا الآخر.. حتى تشير السحب :

– الزيارة انتهت

تخلع كوفية زرقاء من رقبتها وتطوح بها في المطر.. تخلع حذاءها في لهفة.. تنظر من جديد إلى النجيل المبلول بالأسفل دون أن تتحرك..تقنع نفسها بأنها لن تحزن أكثر بسبب حلم آخر غير مكتمل..

الشحوب للقمر.. لي.. للمناديل التي تلوح للسفن التي عادت خاوية..
لماذا لا يختار الغرقى لونا آخر..

الملمس البارد للنسكافيه..

والطعم المر لورقة بيضاء

- 1 -

" أتعرفين كيف يكون طعم النسكافيه بالمطر.. ربما لم تجربيه من قبل.. يشبه النسكافيه المعتاد لكن بسكر أكثر وسخونة أقل.. ثم إنه لا يذهب إلى المعدة.. إنه يتبخر ما إن يتجاوز الشفتين ويتحول إلى رجفة لذيذة مشبعة تسكن جسدك ولا تفارقه إلى الأبد.

أعرف أنني قد جعلتك تتشوقين إلى تجربته.. حسنا.. بما أنه ليس من مطر هنا.. سأحكي لك عن أول ولد وبنت يكتشفان هذا الطعم.. كانت المرة الأولى لهما التي يتشاركان فيها مج نسكافيه دافئا في حديقة الجزيرة المطلة على النيل تحت السماء التي تشاركهما كوبا من المطر.. والمرة الأولى التي يتحدثان فيها دون مقاطعة من أحد ثم يسيران على النيل وهما يشبكان أيديهما دون خوف.. ياه دون أي قدر من الخوف كأنهما قد امتلكا الكورنيش والنهر والمطر والدفء.. وقع أقدامها الخفيف وابتسامتها حين ترفع رأسها إليه فجأة دون أن تتحدث وصوتها حين يفاجئها المطر.. شعرت وقتها أنني مستعد لفعل أي شيء لكي أعيش مع هذه البنت في منزل صغير يرى النيل.. وأنه لولا بعض المارة القليلين في هذا الصباح الشتائي لاحتضنتها طويلا حتى تختلط روائحنا وأصواتنا فيكتشف أقاربنا وأصدقاؤنا حين نعود إليهم كل ما بيننا.. وحتى لا تتعب أقدامنا من السير إلى الأبد ولا تخاف الفراشات من الاقتراب منا.. "

- معاكي ورقة فاضية ؟

تنهدت في خيبة أمل.. أخبرتها صديقتها – وهي عشيقة سابقة له – أنه حين يتوقف عن الحديث فجأة وينهض للبحث عن ورقة فإنه يكون مسكونا بالكتابة.. ساعتها لن تجدي كل محاولاتها معه لا هي ولا كل جميلات العالم كأنه قد تطهر من جسده وانبعث كبخار ساخن من بين اللحم والدم..
نهضت.. ارتدت بعض ملابسها وأحضرت له ورقة وقلما ووقفت إلى جوار النافذة ناظرة إليه.. مستعيدة كلام صديقتها التي أكدت أنها ستستمتع برؤيته وهو يكتب.

– 2 –

الطريق طويل إلى المعادي.. يبدو أنك لم تخبر القاهرة بعد.. حسنا تريد أن تعرف لماذا يعرض ذلك الرجل منزله للبيع.. لا هو ليس بحاجة إلى المال.. كما أن المنزل بحالة جيدة جدا.. ماذا.. بالطبع لا.. هو لا يعاني من أي مرض نفسي.. هو طبيب بشري ناجح جدا.. لكنك ستحتاج إلى التجاوز عن كثير مما سيخبرك به.. ليست إهانات وإنما هي أحاديث لن تجد لها معنى.. فانظر إلى مصلحتك وأعطه ما يريد..
أنت مصر إذن.. حسنا سيقول لك كلاما فارغا عن زوجته الراحلة.. وعن عيوب المنزل التي تسببت فيها.. من عينة ماء باق في أواني الزهور لا يستطيع التخلص منه.. ودفء مكان استناد يديها على زجاج النوافذ أثناء تطلعها إلى الطريق في انتظاره.. واهتزازات باقية في الستائر من أنفاسها المتلاحقة.. وأصوات متداخلة غير مفهومة يسمعها حين ينام بسبب الحكايات التي كانت

تتوقف في منتصفها لانشغالها بشرب النسكافيه الذي كاد يبرد أو بصوت ما قادم من النافذة ثم تنسى أن تكملها.. سيبدو كل هذا الكلام حقيقيا تماما فلا تجعله يخدعك..

سيخبرك إنه في حاجة إلى ترك المنزل والانتقال إلى مكان آخر لأن زوارا كثيرين أصبحوا يأتونه منذ رحيلها.. العديد من الجيران الذين أعادوا إليه الملابس الخاصة بها والتي سقطت في شرفاتهم.. وسائقي التاكسي الذين ركبا معهم أعادوا إليه نقودا باقية لم يأخذاها وضحكا نسياه أسفل المقاعد..

نسيت أن أخبرك.. حاول أن تنتهي من الاتفاق قبل أن تداهمه نوبة صمت مفاجئة قد تطول حتى يلتفت إليك قائلا.. معاك ورقة فاضية.. ساعتها لن يجدي معه أي حديث في العمل وستضطر إلى تأجيل توقيع العقد..

حسنا لقد وصلنا.. ذلك المنزل إلى اليسار..

– 3 –

هذا الرجل الذي أمضى قرابة الساعتين وحيدا في حديقة الجزيرة يشرب النسكافيه ولا ينظر إلى العاشقين العديدين الجالسين حوله.. ولا إلى النهر المستلقي كسولا ومبتسما تحت الشمس.. وإنما يترك بصره يحوم حول طائرة بعيدة تعبر السماء في اتجاه الغرب.. ترى ماذا كان يدور ببالـه وقتها.. وماذا يمكن أن تعني طائرة عابرة بالنسبة له.. أرتجف حين يطرأ لي هذا السؤال :

ماذا لو كان هذا الرجل شاعرا.. لو هبط عليه الآن ملاك الشعر ولو لدقيقة.. ماذا يمكن أن يقول.. وقتها قد يشير إلي فأترك مكاني بجوار ماكينة الشاي وثلاجة المشروبات الغازية ليطلب مني بصوت خافت " معاك ورقة فاضية لو سمحت "..

لن أخبره وقتها أنني قد اعتدت هذه الأشياء.. وإنما سأمنحه من باب حسن معاملة الزبائن ورقة صغيرة من أوراق الطلبات.. ليظل يخط عليها بيد مرتجفة لساعات.. وكلما التفت ولمحني وأنا أنظر إليه طالعني بنظرة اعتذار وطلب " واحد نسكافيه كمان ".. ليضيفه إلى الأكواب العديدة التي بردت بجانبه دون أن يرتشف إلا من ورقته الصغيرة..

وخوفا من إحراجه قد أخبره أنني لا أنظر إليه لطول بقائه هنا.. وإنما أنتظر لأرى أين سيلقي ورقته لآخذها قبل أن يبعدها عمال النظافة الذين يجهلون القراءة والكتابة.. وقد أتمادى وأجلس بجانبه أرتشف من أحد أكواب النسكافيه الباردة وأحكي له حلمي الأخير.. الذي كنت فيه وحدي ليلا في المكان.. تصور يا أستاذ وحدي في كل هذه الحديقة والكورنيش والميدان تنهمر علي من السماء آلاف من القصاصات الصغيرة كالمطر بلا توقف.. عليها كتابات ورسوم وشخبطة غير مفهومة.. بعضها يحمله الهواء بعيدا إلى النهر وكوبري قصر النيل والميدان بينما أركض أنا في جنون محولا جمعها من الأرض ومن فوق المقاعد وحملها إلى مكاني الصغير لأخبئها خلف ماكينة الشاي وثلاجة المشروبات الغازية قبل أن يأتي عمال النظافة.. الذين كنت أرى جيشا منهم يتقدم بانتظام وبطء في العتمة فوق كوبري قصر النيل عابرا إلى الحديقة..

وأسمع دبيب أقدامهم وهمهماتهم الغاضبة بينما أواصل الركض لأجمع المزيد من الأوراق الذي لا تتوقف عن السقوط من السماء.

977

دون أن ينظر إليّ.. أو يغير اتجاه عينيه المزروعتين في شاشة الكمبيوتر.. أجابني :

- لسة شوية يا أستاذ.. أصله متأخر شوية ..

أعاود الجلوس بجوار حقيبتي.. الحقائب الثقيلة تبعث على التعاسة.. تجعلك تشعر أنك لن تستطيع العودة أبدا لأنك

لم تترك شيئا يتذكرك.. حتى بالنسبة لأمثالي من معتادي السفر.. معتادي السفر الذين اعتادوا النوم فوق أرض تندفع كالبرق.. وإغماض عيونهم في وجه كشافات نيون مضاءة باتساع كالذكريات الموجعة.. والذين لم يعودوا بحاجة إلى قضاء وقت في ترتيب حقائبهم.. حيث تعلمت الأشياء أن تتجه تلقائيا إلى أماكنها في الحقيبة المفتوحة بجاذبية مغناطيسية.. للرحيل جاذبية أم أنه استسلامها / استسلامك للقدر ..

أقلب الحقيبة..ما من جيوب إضافية خاوية لأضع فيها زجاجة مياه من أجل الطريق.. ألمح ضوءا يطير على القضبان فأقفز :

- هو دة 977 ؟؟

- لأ.. دة قطر النوم.. 977 لسة متأخر شوية..

التأخير لا يخصني وحدي.. ولا حتى كل هؤلاء الذين يقفون على الرصيف بجوار حقائبهم ويبحثون فيها عن جيوب إضافية خاوية.. ولكنه يشمل كذلك أما مسنة وأخوة في مراحل الدراسة , وحبيبة تقف الآن خلف نافذتها المطلة على شريط القطار بانتظار أن تلوح لي قبل أن تنام..

– 2 –

تبدأ الساعة تشير إلى منتصف الليل وتسري موجة عصبية في الجميع.. الجميع ينظرون في ساعات أيديهم أو يقلبون أوراق الجرائد بعنف أو يعبثون بأزرار هواتفهم المحمولة بينما عيونهم مثبتة على المدى المظلم الذي تغوص فيه نهاية شريط القطار.. الجميع سواي.. مثلي من معتادي السفر يتسرب إليه الملل بصعوبة.. ومثلي من معتادي الانتظار لا يزعجه تأخير قطار..

– 3 –

– انت حتبقى أحلى واحد في مصر.. دة انت حتى ممكن تنفع ممثل ..

أبتسم بسعادة ..

– مش قوي كدة ..

تستدير في مواجهتي.. واقفة بيني وبين المرآة ومصوبة عينيها إلى عيني مباشرة..

– تعرف لو كلمت بنت في مصر.. ممكن أعمل فيك إيه ؟

أحيط كتفيها براحتي في حنان..

– لأ.. في دي اتطمني..انتي عارفاني كويس..

ثم أعاود التأمل في المرآة وهندمة ملابسي..مكملا وأنا أراقبها بطرف عيني :

– أكيد مش حتبقى بنت واحدة !..

ينتابها الجنون..

– كدة ؟.. طيب اقلع بقى.. مانتاش مسافر ..

تسقط أصابعها على أزرار قميصي لتفتحها بينما يتعالى صوت ضحكي وأنا أحاول منعها..

– أمي برة.. اعقلي !!

لا تتوقف حتى تفزعنا صافرة عميقة مندفعة تكسر زجاج المرآة.. فيختفي وجهانا وأعود أحدق في المدى المظلم الذي لا يعد بشيء.. حتى حين أشارت ساعة المحطة إلى الرابعة..

– 4 –

أبدأ في الالتفات إلى تناقص أعداد المنتظرين.. وجوه جديدة أتت بحقائب جديدة.. ووجوه أخرى حملت توترها وساعات أيديها وصفحات جرائدها وغادرت.. لا أدري كيف فالمؤكد أن قطارنا لم يأت بعد.. ربما ملوا وغادروا.. أو آثروا الرحيل في قطارات أخرى.. البعض لا يحتمل الانتظار.. أضع رأسي فوق الحقيبة الجلدية الصغيرة أمدد جسدي فوق الأريكة الحجرية آملا في قسط من النوم..

– 5 –

مع صعود الشمس يبدأ الجوع في إيلامي.. لم أكن متوقعا بالطبع لكل هذا

التأخير.. بينما يصر هؤلاء أصحاب البدل الزرقاء الداكنة على أنه " متأخر شوية "..

تجذب انتباهي سيدة مسنة وحيدة تقف منذ وقت طويل على الرصيف المقابل.. أنحي حقيبتي جانبا وأهبط لأعبر الرصيف عرضيا إليهم.. أحمل حقيبتها الثقيلة على كتفي.. " عنك يا أمي ".. تجذب السيدة بيدي طفلين يصاحبانها وتتبعني وهي تدعو لي.. أعبر الشريط عائدا والحقيبة الثقيلة تضغط على كتفي ومنه على معدتي الخاوية فأترنح من الإعياء.. بصعوبة أصل إلى بوابة المحطة.. لأجد السيدة تدس في قلبي آخر دعواتها وتدس في يدي المرتجفة نقودا.. لا أرفض.. كنت على وشك الموت جوعا.. وقد كان هذا مبررا ملائما وقتها.. أتذكر قطاري.. هذه المرة سأهشم النافذة الزجاجية التي يقف وراءها هذا الوغد..

- انتوا بتوع القطر المتأخر ؟

- أيوة.. 977..

- معلش يا أستاذ.. لسة متأخر شوية كمان..

- لحد إمتى ؟.. أنا هنا من يومين ؟؟

دون أن ينظر إلى أو يغير اتجاه عينيه المزروعتين في شاشة الكمبيوتر :

- مش عارفين ..

أرتمي فوق الأريكة الحجرية المنزوية :

- امتى ييجي القطر وأسافر وأستلم الشغل وأساعد أهلي.. وأجيب شبكة سلمى..

لا أهنأ بالحيرة طويلا حيث يجذب انتباهي من جديد رجل على الرصيف المقابل يهبط من القطار مع أسرته وبحوزتهم حقائب ضخمة.. أنهض بتراخ.

- 6 -

أذهب إلى دورة المياه 4 مرات يوميا.. وقد ذهبت إليها منذ أتيت خمسا وأربعين مرة.. بعض الطرق غير التقليدية لحساب الوقت قد تمنعني من الإصابة بالجنون.. خاصة عندما اكتشفت أنه لم يبق سواي من منتظري القطار الـ " متأخر شوية "..

- 7 -

أيمن تغير.. بالتأكيد فالأطفال يكبرون بسرعة.. كان في الثالث الابتدائي عندما غادرت.. لكن علاء لم يتغير كثيرا.. ولكنه لا شك دخل في طور المراهقة.. هل اكتشف الحب أم لا.. هل تذوق مرارة الانتظار الأولى تحت شرفة فتاة قد تطل كملاك في أي لحظة وقد تطفئ ضوء غرفتها فتغرق الشارع كله في الظلام.. وسلمى.. ابنة خالي التي لم تربها وتحن عليها سوى أمي.. ألا تزال تحفظ ملامحي.. وتنتظر خطابي الأول والظرف المكلل بالختم الدائري لمكتب بريد العتبة الذي سوف تضمه بشوق لتشم رائحتي فيه.. ألا تزال واقفة كل هذا الوقت خلف النافذة تنتظرني لتلوح لي أم أغلقتها مع أول شتاء.. وأمي.. ولكن.. لم نسيت أن أتساءل بشأني أنا ؟..

متى بالتحديد أصبحت صفارات القطارات تشعرني بالأمان وتوتر السافرين واندفاعهم إلى العربات يستهويني ورائحة الوقود والحقائب الجلدية الجديدة وسندوتشات الجبن الأبيض المعدة على عجل تملأ أمسياتي..

- يا ريس.. تعالى ارفع لنا الشنطتين دول..

بعد اكتساب الخبرة الكافية أصبحت أثبت الحقيبة الأقل وزنا في قبضتي بينما أسند الحقيبة الأثقل بين ساعدي حتى تستقر على كتفي.. أحيانا تسنح لي الفرصة فيما أفعل ذلك لتأمل المسافرين.. من طول الفترة التي أمضيتها في هذا العمل لم أعد أرى ملامح محددة.. أنوفا أو عيونا أو آذان.. وإنما أرى مكان الوجوه ورقا مقطوعا من الكشاكيل ذاتها تقطعه سطور عرضية.. الخوف من الأمل وتوتر الحنين والوحشة وما يصاحبها من برودة الأصابع وبطء الاستسلام ونزق البهجة.. لكن زوجته جميلة.. تشبه طفلتها التي تقترب من السادسة.. لم أدر ما سر الفرح الذي امتلأت به روحي حين رأيتها والذي لم يغمرني منذ أشار أحد المسافرين في تسرع إلى البعيد صائحا :

- جه.. أيوة هو والله المرة دي !!

لا تنظر إلي.. كنت أتمنى أن تقرأ الجملة المكتوبة فوق سطور وجهي.. أتبعهما إلى القطار قبل أن ألقي بجسدي في مكاني المفضل بأسفل الكوبري الحديدي.. وأنا أقضم سندوتشات الجبن الأبيض وأستعيد ابتسامتها.. شيء بداخلي يريد أن يصدق أنها تشبه سلمى.. بينما ترفض أشياء.. فكرت أن ملامحها بها شيء مفقود.. كغرفة أطفال تمتلئ بالدببة والقطارات التي لا ترحل أبدا والعرائس البلاستيكية والرسوم الملونة على الجدران.. في منزل زوجين عقيمين..

ليس هذا هو ما منعني من النوم في هذه الليلة.. وإنما اكتشافي أنه ما من أحد يقف خلف نافذة منتظرا مرور القطار ليلوح لي.. أو يشعر بحنين لأن يشم رائحتي في الأظرف مقطوعة الأطراف ببهجة ورضا.. كل ما ينتظرني الآن شيش مغلق وختم دائري أسود : لم يستدل على العنوان..
كصورة بالأبيض والأسود لأشخاص لا أعرفهم.. مازالت تقف هي وزوجها على الرصيف المقابل.. لا يخطف بصري سوى الطفلة.. كفقاعة ملونة تتقافز وتختبئ وتصيح.. تمتلئ روحي بالبهجة.. تمنيت أن تجري إلي وتشدني من ملابسي.. " عايزة أركب مرجيحة يا عمو "..
أخيرا تجلس على الحقيبة الكبيرة عاقدة ذراعيها بينما تدب بقدميها على الأرض في صبر نافد.. تختفي ابتسامتي ..

اجري من هنا.. ولو شفتي قطر قدامك بعد كدة اجري كإنك شفتي عفريت.. اوعي تقعدي مستنياه.. وانتي مصدقة إنك بتقري جرنان أو بتتكلمي مع الأرنوب بتاعك.. لا.. انتي مستنية.. مستنية وبس.. قلبك بيجري بلهفة.. بعد كدة أبطأ.. كل مرة أبطأ.. أبطأ.. يسكت خالص.. وتنزل عليه خيمة سودا تقيلة تغطي الدنيا كلها.. تبقي حتموتك من تقلها.. حتموتك بالبطيء.. انتي لسة بتكلمي الأرنوب..
اجري من هنا .. بسرعة.

امتى ييجي القطر وأسافر وأستلم الشغل وأساعد أهلي.. وأجيب شبكة سلمى.. سلمى..
سلمى مين ؟..

– 9 –

سأكمل اليوم دون عمل.. جسدي يحتاج إلى بعض الراحة.. أغمض عيني.. لم أحمل أمس سوى حقائب الطفلة والمرأة الجميلة ولكنني أحسست بالإرهاق كأن جسدي ممتلئ بالحجارة.. ينبعث صوت.. " هو دة.. أيوة جه ".. صفير قطار يفجر الذاكرة ويبعثر علامات الاستفهام في الهواء.. دبيب أقدام تتراكض والهواء يصير مشحونا بالتوتر.. " أخيرا وصل ".. يعود الصوت.. لمن هذا الصوت.. وما هذا الشيء الذي يمكن أن يصاحب وصوله كل هذه الضجة.. تظل علامات الاستفهام تدور في الهواء حول رأسي محدثة طنينا مزعجا فأقوم بجمعها في أصابعي ودسها تحت الوسادة كي أستطيع العودة إلى النوم..

ثلاث حكايات قصيرة تتجاهل أسماء الأبطال

1 – زبائن مهمون

بائع الورد الطيب على الكورنيش.. الذي تحبه لأنه الوحيد الذي لا يغش.. ويمنحك ورودا طازجة وابتسامة من القلب.. والذي يحبك لأنك من زبائنه المهمين.. أنت والفتاة الشقراء التي تأخذ منه الوردتين يوميا.. وباليد الأخرى تحتضن أصابعك..

ما الذي قد أغضبه منك فجأة .. فلم يلتفت إليك.. وأعطاك ظهره.. فتكورت مسندا ظهرك المجهد على سور الكورنيش متمنيا ألا يراك أحد ممن تعرفهم.. حين تابعته بنظرك كانت هذه هي المرة الأولى التي تنتبه فيها إلى أنه رغم إلحاحه المحبب على العشاق والذي يصل أحيانا إلى الاستفزاز.. فإنه لا يلتفت إلى الآخرين الذين يمرون على الكورنيش – مثلك هذا الصباح – وحيدين ؟؟

2 – أحمر طوبي يتنفس بشغف

أنت تذكر حين استدارت إليك.. وقالت بينما تحمل لها حقيبتها الثقيلة إلى شقتها :

– كنت عند الدكتور.. انت في طب وعارف إن الستات اللي ما بيحملوش معرضين أكتر لسرطان الثدي ..

هل كانت تبحث في عينيك عن تفسير طبي.. هل كانت تريد أن تطمئنها بكلمات المجاملة المعتادة وتمضي إلى شقتك.. ربما لم يدر ببالك ما قد تبوح به عيناك وهي تنزلق من وجهها الجميل إلى رقبتها الناعمة ثم صدرها الممتلئ بأسف قبل أن تسكب نظراتها على الأرض.. فقد كنت منشغلا تماما بما تبوح به عيناها هي :

وكأنه حين يمس جسد رجل هذا النسيج تذوب أحزانه المختزنة وهزائمه المتكررة وتنتهي كل مبررات خلاياه للاعتراض..

.....

عند العصر تميل أشعة الشمس على كائنات الشارع.. يصبح المقهى ذو السقف المكشوف ومحال تصوير المستندات ومقاهي الانترنت والعابرون مثل

معروضات في صناديق زجاجية في أحد المتاحف تسلط عليها الإضاءة من زاوية واحدة فتعطي ظلالا تبعث الرهبة.. بينما على شرفة الطابق الثالث من بنايتك يضيء قميص نوم أحمر طوبي.. يندفع مع الهواء صعودا وهبوطا.. ينتفخ حينا حتى يكاد يطير ويتقلص ويعود إلى الوراء حينا حتى يلتصق بجدار الشرفة.. يتنفس بشغف هواء الشارع وأنفاس المارة.. كأنه لا يجد ما يملأ رئتيه في غرفة امرأة وحيدة في الثلاثينيات من عمرها.. وتطفئ ضوء غرفتها قبل العاشرة مساء..

ربما لو تطلعت إليه في أي من مرات ذهابك أو إيابك للفحت وجهك ظلال آلاف العابرين الذين حملوا إليه ولو نظرة متهكمة.. تلك الظلال التي مازال يحتفظ بها القميص ساخنة من أجلك..

3 – جريدة

بالأمس وقفت أمام بائع الجرائد على أول الشارع المؤدي إلى الكورنيش.. حيث وضع الرجل لوحا من ورق الكارتون فوقه وفوق جرائده لحمايتها من المطر الخفيف.. كانت نسخ جريدتك اليومية المفضلة متراكمة كأنها لم تمس.. لم يحدث اليوم ذلك المشهد الذي ظللت تتخيله طوال الأسبوع الماضي.. أن يأتي رجل فيجتذبه مانشيت ولو فرعي في الصفحة الأولى ويبتسم ويمد يده إليها

بلهفة ويحملها دون أن يتصفحها لكي يقرأها في العمل.. رغم أنك اليوم قد نشرت لك قصة جميلة جدا كانت تعجب فتاتك كثيرا حين تقرأها.. أحسست بقطرات المطر البارد الخفيف على ظهر يدك وأنت تخرجها من جيب معطفك لتأخذ الجريدة وتمضي دون أي لهفة..

حين نظرت إلى الكورنيش المشمس كان يبدو بعيدا جدا من مكانك.. الأشجار الدافئة التي شربت همسك / همسهم فأورقت ورودا جديدة والماء الناعم الذي استقبل قلبك / قلوبهم الممزقة فلم تتغير النظرة المتفهمة المتعاطفة المرتسمة على صفحته.. تساءلت كم مرة مرت جارتك من هنا.. وعدلت من وضع حقيبتها وتأبطت ذراع وحدتها الرمادية وخطت ببطء لتستمتع بشمس الشتاء على جسدها.. هل آلمها تجاهل بائعي الورد لها أم أن هذا الأمر يصبح منطقيا بمرور الوقت فنفقد الإحساس به.. يبتعد كشجرة من بين أشجار الطريق التي لن يشعر أحد أبدا بأي فارق إذا ازدادت واحدة..

عليك أن تعترف بأنه رغم كل ذلك فإنك لم تصدقني إلا حين رأيتها في المساء وأنت تنهض من عتمة المقهى ذي السقف المكشوف فور انتهاء مباراة الأهلي والنجم الساحلي.. جريدتك اليومية المفضلة.. فوق إحدى المقاعد الأمامية منكمشة وداكنة ومبتلة تماما ومطوية كما هي.. بدا أن ذلك الذي اشتراها لم يفكر في قراءتها.. وإنما أتى بها فقط ليقي رأسه زخات المطر المتساقط في المقهى.. بينما هي – تلك المطبقة بعناية – لا تملك أن تناديه ليعود ويقرأ ولو – فقط – قصتك الجميلة جدا التي تتحدث عن الأشياء التي تدفعنا إلى

الاحتياج المؤلم لإلحاح بائعي الورد والمقاهي ذات الأسقف المكشوفة وكتابة القصص ومراجعة الطبيب باستمرار..

تنظر إلى الجريدة المبتلة وهي تسقط من على الكرسي دون مقاومة فتنهض فجأة.. تغادر وتمضي في طريقك بخطوات سريعة.. متجنبا النظر إلى المرايا أو زجاج فتارين المحلات.. فأنت تعلم أنني قد أكون مختبئا كعادتي خلف إحداها.. حسنا.. من الطبيعي أن تخاف أن تتلاقى عيوننا.. خاصة الآن.

كالاقتراب من شيء جميل

- 1 -

عندما أنظر إلى شاطئ رأس البر من بعيد.. أغمض عيني وتحضرني الملائكة.. فأتمنى أن أكون صبيا يعمل في أحد الشواطئ.. أحمل شمسية ومقعدين وأسير برفق خلف السيدة (ميج ريان).. تلك - بالضبط - التي شاهدتها في (قبلة فرنسية).. سأدق لها الطرف المدبب لعصا الشمسية في الرمل في المكان الذي تختاره بإشارة واحدة من إصبعها كما تعودت.. سأدور بالعصا لأصنع حفرة مستديرة صغيرة وأثبتها في الرمال.. بينما أتأمل قدميها الصغيرتين وهي تخلع حذاءها الأبيض وتغوص بأصابعها في الرمل الدافئ.. قد تنظر هي إلى ملابسي القديمة وتعتقد أنني أتمنى أن أكون مكان صديقها الذي ذهب إلى طرف الشاطئ ليبحث عن زجاجة ويسكي بينما يسترق النظر إلى سيقان الفتيات اللاتي يلعبن الكرة الطائرة على الرمل.. تظن أنني وقتها سأحمل جسدها الخفيف وألقي بها في الموج لأسمع ضحكتها العالية.. هي لن تعرف أنني أحبها أكثر لدرجة أنني لن أتمنى أكثر من أكون صبيا يتأمل قدميها الصغيرتين بينما يصنع بطرف الشمسية المدبب حفرة مستديرة ليثبتها بالرمال..

- 2 -

أنا :

قلب محفور في لحاء شجرة فل بلا أسهم تشير إلى أسماء..

أنت :

لست شجرة الفل – كما قد تخبرك صديقتك السمراء التي تحضر الندوات الأدبية حين تقرأ هذا الجزء.. أنت قطيع من النمل الأبيض سيحفر في داخل هذا القلب.. يضع بيضه ويمضي.. وحين يعود حاملا الطعام لن ينتبه إلى أن عشه الصغير قد ازداد اتساعا ..

- 3 -

عندما أنظر إلى الولد النائم فوق غلاف ديواني الأزرق.. أغمض عيني وأتخيل الفتاة التي ترقص فوق صدره ناظرة للسحاب.. والتي طلبت من مصمم الغلاف أن يحذفها لسبب لم أخبره به وقتها.. فهو لن يستطيع - مهما حاول - أن يقلد حركة ذراعيها وهي تطير.. تطير فعلا.. تلك الفتاة التي ترقص فوق صدري..

هي الطفلة التي أحببتها دوما.. التي ألقي أمامها قصائدي وأضحك بسعادة عندما تقطب جبينها الصغير محاولة الفهم.. بينما تبتسم وتتنفس الصعداء عند كل كلمة (بحبك).. هي التي كانت تحمل ديواني الأول سائرة في شارع منزلها فيحلق فوقها النحل في دوائر وتنفتح كل النوافذ باتجاهها باستثناء تلك الألوميتال السخيفة التي تحجب الهواء.. بينما تشعر هي بأسف عميق وتتمنى لو كانت شاعرة مثلي لتفهم هذا الشعر العجيب الذي قلت لها أن اسمه شعر نثر.. تمنح الديوان لصديقتها السمراء التي تحضر الندوات الأدبية فتشرح لها باختصار اسم الديوان.. ولكنها تلمح في عينيها نظرة إعجاب فتأخذ منها الكتاب بغضب وتنصرف وقد أحست بالأمر يزداد صعوبة.. تجلس تحت شجرة فل عليها قلب محفور بلا أسماء يعشش فيه النمل الأبيض..تبدأ القراءة..

وكلما قلبت صفحة تسقط على الكتاب ورقة خضراء..ورقة خضراء طرية ومتماسكة بينما بالأعلى يظل الورق الأصفر الميت دون أن يسقط..

تنهض .. حين مست أوراق الديوان للمرة الأولى ووجدته دافئا شعرت أنها سوف تفهم بسهولة لأنه لها.. ولكنها تدرك الآن أنني كنت صادقا.. لا يكفي أن يكون لك.. المهم أن تكوني له.. تجلس على مقعد صغير على شاطئ رأس البر في ذلك الموضع الذي صنع فيه صبي حفرة مستديرة على الرمل من أجل (ميج ريان).. تعود للقراءة.. وكلما قلبت صفحة يقترب الموج حتى يغمر قدميها ولا ينحسر.. لا تتعجب حين تقفز من الكتاب سمكة فضية صغيرة وتسبح بين قدميها وتختبئ خلف أرجل مقعدها.. بينما كل المقاعد والأقدام بجانبها وأمامها مغروسة في رمل جاف..

تمر عليها إحدى بائعات الشاطئ وتمنحها عوامة وردية اللون بها زهور زرقاء وتنصرف.. يمر بائع آخر يمنحها إيشاربا خفيفا أبيض تضعه حول رقبتها فتشعر بأنها قد أصبحت أكثر اقترابا من رائحة البحر.. تعلق بصوت عال أنها لا تحتاج لكل هذه الاعترافات بأنني أحبها.. هي تتمنى فقط أن تصبح شاعرة لتفهم ما أكتب.. خصوصا هذه الفقرة التي تبدو حزينة :

جسمي كله شبابيك

باطل منها

على سكان الروح

اللي عايشين بعيد

من غير ما أبكي

أصل الدموع

معاهم ..

أسبوع .. ثلاثة أيام .. يومان

- 1 -

اليوم سيكون مجهدا جدا.. تأخذ نفسا عميقا وتشمر عن ساعديها مسددة نظرة متوترة إلى غرفة نومها.. من النافذة المفتوحة دوما والتي لا تستطيع إغلاقها صيفا أو شتاء تتدفق أتربة الشارع إلى الغرفة.. لذلك تعمد إلى غسل وتغيير ملاءات الفراش البيضاء والأغطية وتنفيض الستائر والأثاث باستمرار.. ربما كل أسبوع أو كل ثلاثة أيام أو يومين.. حين قصت هذه المشكلة على زميلتها في العمل أخبرتها أنها قد تكون مصابة بنوع من الوسوسة.. لكنها أومأت وقتها وأسرت لنفسها أن زميلتها لم تر كيف يكون لون الملاءات قبل غسيلها مباشرة.. تتنهد.. يقترب من الأصفر..

- 2 -

صدور مجلة الثقافة الجديدة اليوم كان سببا كافيا لاحتفال حقيقي.. عادت من العمل بقلب لا يريد أن يكف عن التقافز كطفل وابتسامة واسعة جاهدت أن تخفيها عن الكمساري وهي تمنحه ثمن تذكرة الأتوبيس وعن البائع الذي يقف بأول شارعها وهي تنتقي الطماطم والخيار للغداء.. أشياء خبيثة جدا وهواجس لا تخفى عليك يمكن أن تحيط بامرأة مبتسمة بلا سبب.. فلترسم إذا على

ملامحها بعض الجدية حتى تصل إلى منزلها فتترك الأكياس في المطبخ ثم تدخل غرفتها فتخلع حذاءها على عجل وتخرج المجلة من حقيبتها وتعانقها وتصرخ من الفرح ..

ومضات .. قصة قصيرة .. رضوى علي

أخذها الشرود وهي تفكر في الطقوس التي يجب أن تقوم بها هذا اليوم.. ستشغل قائمة بأغنيات فيروز والشريط الجديد لفريق وسط البلد.. ستصنع كيكة البرتقال.. سترتدي ثوبا خفيفا وردي اللون.. ستخرج كل المجلات والصحف التي نشرت قصصا لها بداية من مجلات الجامعة وحتى اليوم .. يااه .. اتناشر سنة يا رضوى ؟؟

ستبسط كل هذه الأعداد متجاورة على الفراش ثم تستلقي وتترك نفسها لرائحة الورق وملمسه على جسدها.. ذلك الورق المشبع بأحلامها الصغيرة وإحباطاتها وحنينها الذي لا يرتوي ..يحملها بعيدا..

- إية دول ؟

- الباقي .. سبعة جنيه

- بس أنا اديتك خمسة

- لأ.. انتي اديتيني عشرة

تقفز الابتسامة رغما عنها وتتسع :

- معلش مخدتش بالي.. سلامو عليكم

تعشق رائحة الغرفة في نهاية يوم التنظيف.. الملاءات الجديدة التي تحمل رائحة الشمس والصابون والسجاجيد وخشب الدولاب والكومودينو الذين عادت إليهم ألوانهم الحقيقية.. تلامس الملاءات برفق.. لونها الجميل الذي يجعلها تشعر بأنها قد أصبحت أخف وزنا ويقنعها بأنها – بعد عدد معين من مرات الغسيل – سوف تصبح شفافة يمكنها أن ترى فيها كل صباح الأحلام الجميلة التي تنساها بمجرد الاستيقاظ.. كل الجوائز الأدبية والهدايا وقطع الجاتوه ورائحة الكورنيش وقت المطر ومحاولات أشرف الشاعر الأسمر الذي تقابله دائما في الندوات للإمساك بيدها.. تستطيع أن تدير ظهرها للأحلام الأخرى وتنهض فلا تزعجها..

يفزعها صوت ارتطام شيش النافذة بالجدار بفعل الهواء.. تنظر من جديد إلى الملاءات التي تعرف جيدا أنها ستضطر إلى غسلها بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر.. حين يزحف إليها الانطفاء المؤلم.. تنقبض.. المزيد والمزيد من الملاءات الصفراء والأيام المجهدة جدا يا رضوى فهل هذا ما تمنيت ؟؟

– 4 –

في مكتبة البلد تشارك صديقتها العزيزة كوبين من القهوة.. تحب أن تفعل ذلك دوما كلما أتت كأنه طقس خاص .. بعد أن تتأمل الكتب الجديدة وتبحث عن تواريخ ميلاد الأدباء الشبان حتى تنفرج أساريرها عندما تجد كاتبا أو كاتبة

تماثلها عمرا وتصدر كتابها الأول.. ثم تمر بيدها على الكتب الأدبية كأنها تلتمس بعض التشجيع وتتخيل كيف سيكون غلاف كتابها الأول وكيف سيكون حجمه.. إلا عندما تكون مسكونة بالضيق والملل والوحدة كما هي اليوم.. ففي هذه الأيام تكتفي بالقهوة وبنظرة من بعيد على الركن الذي يحوي الكتب الأدبية ويلتزم خيالها الصمت ..

تتأملين سطح القهوة وأنت تفكرين في أيامك التي لا تخلو أبدا من المتاعب.. يدور سطحها الساخن في دوائر كم كنت تحبين تأملها وأنت معه بينما تجادلينه أنها ليست عشوائية أبدا وإنما هي لغة لا نعرفها.. ضغوط عملك الذي لا يشبع طموحك.. مشاحنات أمك التي تلومك دائما على تأخر زواجك ولا تمل من الإشادة بابن أخيها الذي رفضته قبلا والذي تزوج بعدها بفتاة تصغره بعشرة أعوام.. أصدقاؤك القلائل الذين أحببتهم جدا والذين يقلون يوما بعد يوم بفعل الزواج أو السفر أو الانشغال.. حتى هو الذي لا تجدين سببا واحدا لاحتفاظ ذاكرتك اللعينة به رغم أنك لم تريه منذ فراقكما.. ياه يا رضوى سبع سنين ولسة بيجيلك في الحلم ؟؟.. يدور سطحك الساخن في دوائر بينما تنفتح نوافذ وحشية أخرى لا تقوين على غلقها تدفع بالأتربة بلا هوادة إلى داخل روحك.. كم يجعلك هذا تشتاقين إلى كتابة قصة جديدة..

– رضوى ؟؟ مش معقول .. إية الصدفة الجميلة دي !..

يأخذها من شرودها دخول أشرف إلى المكان.. حين تتلاقى عيونهما تمتلئ بدفء حميم لا تخطئه لولا أنه يخبو سريعا تاركا بعض المرارة في الحلق..

– أشرف ؟؟ إزيك..

لا يمد يده إليها.. فهو يعرف أنها لا تصافح الرجال ولا يريد إحراجها.. كما أنها بالطبع لن تغامر – مهما رغبت – بأن تمد يدها إليه هكذا دون مقدمات..

– مبروك ..

– على إية ؟

مستنكرا :

– على إية ؟؟ القصة بتاعتك في الثقافة الجديدة.. تحفة..

على فكرة فيكي ميزة حلوة قوي.. إنك بتكتبي كتير..

متجاهلة الأمر بأكمله كأنه يتحدث عن قصة لكاتبة أخرى :

– بس دة كان من أسبوع..

– مش فاهم.. يعني إية ؟!

– يعني الله يبارك فيك !..

– مالك يا رضوى.. شكلك مش مبسوطة ؟

– 5 –

اليوم سيكون مجهدا جدا.. تأخذ نفسا عميقا وتشمر عن ساعديها مسددة نظرة عاجزة إلى غرفة نومها.. وإلى النافذة المفتوحة دوما والتي لا تستطيع إغلاقها صيفا أو شتاء..

حارس ليلي للسماء

– عشان ربنا يحبكم.. عشان خاطري.. طب وحياة شجرة الخوخ بتاعت جدي.. سيبوني حبة..

يضحكون.. ولكنهم يوقفون الأرجوحة.. ويكررون أمرهم بالهبوط..

– مش حانزل..

لدبيب أقدامي المغتاظة على الخشب القديم وقع دافئ.. فتشعلني الرغبة أكثر.. ولكنني لم أنجح يوما في ترجمة هذا التهديد إلى أكثر من هذه الجملة القصيرة.. سأستغرق سنوات قبل أن أدرك أن الأشياء تنتهي بطبيعتها.. وأن البشر يرفضون التصديق بطبيعتهم..

.....

هل هكذا يجب أن تنتهي الأشياء يا علي ؟

تهب ريح ديسمبر القارسة فأتثاءب.. ملابسنا الرخيصة قد تقينا أعين الناس لكنها لن تقينا أصابع الشتاء التي تتحول إلى مخالب في مثل هذا الوقت بعد منتصف الليل.. أتابعه في موقعه البعيد.. بالزي الميري و سلاح الخدمة.. خمنت أنه يتثاءب هو أيضا.. في موقعنا العالي الذي نقضي فيه الساعات معلقين في أبراج الحراسة المتناثرة حول إستاد القاهرة الدولي يكون علينا أن نبحث عن أشياء أخرى تبعث الدفء وتساعد على مرور الوقت أسرع..

أستطيع أن أتذكر الليلة الأولى التي استلمت فيها موقعي.. صاعدا سلم البرج ببطء محافظا على اتزاني.. درجة درجة.. تبتعد أصوات الشارع وتزداد برودة

الهواء.. درجة درجة.. تقترب السماء وتتضح أشكال النجوم.. لكن قدرتنا على الاحتفاظ بهذا الارتقاء المدهش فترت مع الوقت كأنما صعد خلفنا الصهد وتراب الشارع وثرثرة الحريم وزحام الحارات الضيقة متلاصقة الأبواب.. فهل هكذا يجب أن تنتهي الأشياء يا علي..

.....

أنتظره عند أول الطريق الترابي الضيق المؤدي إلى بيته.. إذا سألني أحد فأنا لا أعرف شيئا.. أنا ذاهب إلى عمتي رقية للحصول على بعض الحطب..

فليحمل علي التهمة وحده.. حسنا.. أنا لم أحبه يوما.. هو يقضي معظم الوقت مع أبيه في الغيط ولا يجيد السباحة ولا لعب الكرة.. ولكنني أضمه إلى فريقي كلما نلعب.. فيركض بعنف خلف الكرة لكن بلا عقل.. وعندما يحصل عليها لا يدري ماذا يفعل بها فيركلها بأي شكل.. عندما أشعر ببعض تأنيب الضمير أحاول إقناع نفسي بأن هناك أشياء أخرى تربطني به غير كونه ابن حارس مراجيح المولد التي في طرف السوق الكبير.. ها هو قد جاء..

يشير لي بسلسلة المفاتيح في ظفر فأقفز فرحا..

– بس اوعى يا عامر.. لازم نرجع قبل أبويا ما يصحى..

– ماتخافش..

أصبح أكثر قلقا منذ الصيف الماضي حين اكتشف أبوه سرقته للمفاتيح فمده على قدميه بجريدة النخل وحرمه من اللعب في الشارع.. حين قص لي ذلك من خلف شباك داره وهو يبكي لم أدر بم أرد.. ألقيت إليه ثمرة تين كانت معي فأشرق وجهه بابتسامة آلمتني من فرط روعتها وجعلتني أدرك كم هو شرير جدا ما أفعله.. ربما سأدرك يوما بدرجة أقل من الشعور بالذنب أن هناك الكثير

من الأشياء الشريرة التي قد نفعلها من أجل أن نرى السماء.. نزوتنا الصغيرة الرائعة..

.....

للمباريات الكبيرة وقع أسطوري..

يمتلئ العالم الصامت الكئيب فجأة بالضوء والصخب .. الأتوبيسات الضخمة المحملة بالوجوه المشحونة بالانفعال.. عشرات الآلاف من الأعلام الملونة.. الفتيات الجميلات اللاتي يرتدين الباديهات والجينز ويهتفن بصوت رقيق يبعث على الضحك.. المصورون المتناثرون بكاميراتهم بترقب حول الأبواب..

الصخب الهائل عند قدوم أتوبيس اللاعبين الذي يعبر قريبا جدا من موقعي.. من هنا أستطيع أن أراهم وهم يزيحون ستائر الأتوبيس ويجيبون هتافات الجماهير بابتسامة تحاول إخفاء التوتر.. لم أصدق يوما أنني يمكن أن أراهم هكذا في الواقع وبكل هذا القرب.. ذات ليلة نظر محمد أبو تريكة لأعلى بحركة غير متوقعة ورآني فلوح لي في حنان بينما تسمرت من المفاجأة..

في اليوم الذي تلا أول مباراة للأهلي في بداية خدمتنا جلست مع علي في مسجد الحسين حيث نحب أن نذهب دائما وتحدثنا طويلا عن هذا المشهد..

– مصر اللي بجد ياد تشوفها في الحسين أو في الاستاد.. مش في أبو تشت !..

أنتبه إلى وجهه الذي اكتسى بالحزن فجأة ..

– أبوك عامل إية ؟

تنهد بعمق.. فتابعت :

– خير كفى الله الشر ..

- تعبان.. على آخره..

- روماتيزم القلب لسة ؟..

أومأ :

لازم العملية.. ضروري.. الدكاترة بيقولوا مش لازم يتأخر.. والعملية بألوفات.. يعني يا إما هو يموت.. يا أمي والأربع اخوات يموتوا..

كل ما بادخل البيت باحس إني في شق.. مش حاعرف أطلع منه تاني..

أحاول أن أقول " إن شاء الله خير " فتخرج هكذا :

- يعني مش لو كنت لعيب في الأهلي كان زمان أبوك اتعالج على حساب الدولة بقرار من الريس ؟..

يستسلم لدعابتي فيضحك بحرص.. يتراجع للخلف حتى يسند ظهره على نحاس الضريح.. يهمهم ناظرا لأعلى في شرود..

- تعرف ياد يا عامر.. كان نفسي أبقى لعيب كورة..

أكتم ضحكي.. هو يدرك جيدا أنه لم يجد لعب الكرة في أي يوم من الأيام..

- اشمعنى ؟

- نفسي أجيب جون في المقص.. وأجري من الفرح .

.....

صنعت لنفسي كوبا من الشاي على رواقة.. أنتهز فرصة خروج الجميع أمي إلى السوق والأطفال إلى الحارة المتربة بينما أحظى بإجازة قصيرة.. أصوات المشاجرات وتلفزيون المقهى وصياح الأطفال بالخارج ترزع الأبواب وزجاج الشبابيك كأنها توشك على هدم البيوت الصغيرة المتساندة على بعضها البعض.. أرفع البراد الصغير من البوتاجاز.. أخرج عودا من النعناع من مخبئه

بين ملابسي وأضعه في كوب الشاي وأرشف برضا.. أتأمل جدار المطبخ أمامي.. ثم أمر بعيني على باقي الجدران.. حزم البصل والجرجير ورفوف العلب البلاستيكية الصغيرة وسبت الخبز والحلل منطفأة البريق.. اكتشفت أنني أرى هذا المكان للمرة الأولى.. هذا المطبخ الذي لا يخلو أبدا من الصخب والبخار وحركة أمي البطيئة وتقافز الصغار حول حلل الكبدة ولحمة الراس في أيام الأعياد.. أخرج إلى الصالة فأشعر أنها لم تعد بهذا الضيق الذي كنت أشعر به.. أفتح نافذة غرفتي وأرشف الشاي بينما أتأمل الأطفال المتدافعين في الحارة والبلكونات التي تكاد تخفيها تماما حبال الغسيل المثقلة.. هكذا إذا يصاب الناس بالالتهابات الشعبية – مثلما أسر لي ابن جارنا طالب الطب – ثم روماتيزم القلب.. فتضيق صمامات القلوب.. تضيق على الفرح والحلم ورائحة الشاي بالنعناع والعلاقات الحميمة في الفراش..

– تعرف ياد يا عامر.. احنا فرحتنا كدة.. بخيلة.. وحتى لما بتيجي.. بتتخنق معانا في بيوتنا الضيقة وشوارعنا الزحمة.. بنبقى خايفين نصرخ أو ننط من السعادة كإننا ممكن نوقع بياض الحيطان أو نخرم السقف الواطي .. إنما شوف كدة .. أحلى حاجة إن الاستاد مالوش سقف!..
أزيح شيش النافذة على اتساعه وآخذ نفسا عميقا.. ربنا يقوم لك أبوك بالسلامة يا علي..

.....

– لا مؤاخذة يا فندم.. معلش.. آخر مرة يا فندم..

أدهشني أن يكرر اعتذاره بسرعة وتتابع للضابط النوبتجي الذي سأله عن سبب تأخره عن ميعاد خدمته.. بينما تعلو وجهه عاصفة من الفرح لا يقدر على كتمانها.. يصعد برج الخدمة بخفة.. أشير له من بعيد.. فيضم كفيه ويضعهما أمام فمه كبوق ويصرخ :

- أبويا حيتعالج يالاااا ..

- والفلووس ..

- جات فلوس م البلد.. أهل الخيييير .. ربك ما بينساش حد..

أشار له الضابط بالصمت فتوقف عن الحديث محييا الضابط وعلى وجهه علامات اعتذار طفولية.. ستمر ساعات الليل ثقيلة حتى يرى أباه ويتأكد من إمكانية أن يرتمي في حضنه لسنوات أخرى قادمة.. ربك ما بينساش حد..

أشعر بالحاجة إلى سيجارة.. أخرج العلبة من بين ملابسي وأنتزع واحدة.. ربما أيضا لن يعود المنزل شقا مخيفا ضاغطا كما كان.. وسيكون بإمكانه أن...

يقطع استرسالي التفات عابر نحو علي فلا أجده في موقعه.. أتلفت حولي.. الثالثة فجرا والدنيا ثلج ولا أحد هنا أين يمكن أن يذهب.. أحمل سلاح الخدمة وأتلفح بكوفيتي وأهبط ببطء.. في العتمة أعبر البوابة الكبيرة للمرة الأولى في حياتي.. في وسط السكون يتناهى إلي الصوت فأركض.. أضيء كل كشافات الإضاءة وأواصل الركض حتى أصل إلى المدرجات.. كان هو.. يركض بجنون داخل الملعب الخالي.. يخلع البدلة الميري ويطوحها في السماء.. يدور في دوائر واسعة بفانلته الرمادية القذرة ذات الأكمام القصيرة.. فاردا ذراعيه النحيلتين على اتساعهما كجناحي طائرة على طريقة أبو تريكة ويصرخ فيختلط صراخه بالضحك.. يصرخ ويواصل الركض..

رنين هاتف بعيد

حين وضعت طرفي السماعة في أذني.. ولامست بها صدر المريضة المتأوهة في رفق.. انتظرت تلك الحشرجة المخيفة المصاحبة للتنفس والتي تسمع غالبا في أمثال تلك الحالات من مرضى تليف الممرات الهوائية الدقيقة.. وقتها فاجأني الصوت للمرة الأولى.. رفعت رأسي فزعا.. أبعدت طرفي السماعة مديرا بصري في العنبر البارد بجدرانه البيضاء والباب المفتوح على الممر الصامت تماما في مثل هذه الساعة.. هززت كتفي وعدت للفحص من جديد.. ثوان من الصمت مرت ثم اندفع الصوت في أذني واضحا وحقيقيا تماما.. أنا لا أهذي.. هذا صوت جرس حاد ومنتظم.. يقترب ويتضح كلما اقتربت من الجهة اليسرى من الصدر ويخفت كلما اتجهت بعيدا.. هل حقا لا أهذي؟؟

تتأوه المرأة مديرة وجهها إلي.. عيناها مغمضتان وبعض العرق يبلل حافة جبينها وخصلات شعرها القصيرة التي بدت من طرحتها السوداء.. أمسك بسماعتي من جديد.. آخذ شهيقا عميقا ثم أضعها على صدر المريضة وقد بدأت أشعر بدقات قلبي تتسارع.. أقترب من القلب بيد مرتعشة.. فجأة يعود الصوت.. مخالفا لأي منطق ولكل ما درست في سنوات طوال.. ماذا يشبه.. جرسا لباب منزل.. ساعة منبهة.. رنين هاتف.. نعم ربما يكون أقرب إلى ذلك.. أشبه بالهواتف القديمة التي تدار بالأقراص والتي كنت أراها في أفلام الأبيض والأسود.. حسنا.. أعرف ماذا يمكن أن يفعل الكثير من البقاء وحيدا في المستشفى ليلا تحت ضغط العمل المتواصل.. أضع سماعتي على موضع

آخر.. نفس الرنين.. لم أدر ماذا أفعل.. تمنيت لو أن هناك هاتفا في العنبر كي أريح ذهني المشتعل وأزعم أن هذا الرنين خاص به..

تعود المرأة إلى التأوه ثانية ساقيها برفق إليها.. أنتبه إلى بنطالها ذي اللون السماوي مثل طلاء أظافرها.. يستوقفني كأنني لم أكن أتوقع أنه ثمة لون تحت هذه العباءة السوداء الواسعة.. أجدني أبتسم بإرهاق.. أعرف ماذا يمكن أن يفعل الكثير والكثير من البقاء ليلا في مستشفى مقفر ناء.. ممرضات كالحات الوجوه كقطع القطن المتسخة.. صيدلية شبه فارغة.. بوابة لا تقوى على صد الحيوانات العابرة وغرفة استقبال لا تقوى على مواجهة أي مرض حقيقي.. في مكان كهذا يمكن أن يفاجئني مجرد لون يقفز كطفل أمام عيني دون خوف .. بربك توقف أيها الصوت..

تمد يدها بوهن حتى تلامس يدي.. تشد عليها كأنما تريد أن تنبهني إلى شيء.. يدها لا تزال دافئة رغم احتباس الأكسجين عنها.. ربما تمتلك إجابة.. تحاول فتح عينيها ببطء فأغمض عيني.. يعاود الصوت.. أتشاغل بمحاولة تذكر آخر مرة سمعت فيها هذا الرنين.. ربما في بيت جدي.. بيت جدي القديم الواسع ذي النوافذ العالية الذي تغمره الشمس ورائحة الريحان المزروع في الشرفات.. أجدني قد استسلمت للصوت تماما محاولا أن أتذكر صاحب آخر صوت سمعته في هذا الهاتف البعيد.. تسخن دموع تحت جفني وأترقب لحظة ملامستها بألم لخدي البارد.. بعد شهرين من استلامي العمل في هذه المدينة البعيدة أصبحت الكوابيس تعاودني بشكل متصل.. خاصة ذلك الكابوس الذي أراني فيه أطرق بعنف ويأس باب منزل مغلق.. بينما في الداخل يأتيني رنين هاتف يتواصل دون أن يجيبه أحد..

يطول وقت الفحص .. أجسر على معاودة النظر إليها.. أنتبه إلى أن صدري وصدرها يرتفعان بنفس الإيقاع.. ربما أعاني أنا أيضا من صعوبة مماثلة في التنفس..تخطر لي فكرة.. ربما توقف هذا الرنين إلى الأبد لأعاود فحص الرئة وربما تمنع أيضا تحقق أسوأ مخاوفي.. أن ترفع المريضة عينيها إلي باستنكار ونفاد صبر قائلة : ما تقول ألو يا دكتور..

– آ.. ألو..

أصمت بعدها.. يختفى الرنين.. يباغتني صوت حشرجة مخيف.

ما روته الكائنات عن عاشقين

يقول هو :

عندما سقط القميص السماوي الخفيف المعلق في شرفتها.. اكتشفت لأول مرة ذلك الجرح الصغير بطرف إبهامي والذي كان سبب هذا الألم الذي يعاودني كلما حاولت الاتصال بها.. أدركت ساعتها أن ساعات الانتظار الطويل تحت الشرفة لن تجدي.. اتجهت إلى محل الورد الذي تحبه في آخر الشارع.

يقول جرح صغير :

هل يستطيع قميصها أن يقنعك بكل ما لم أستطع إقناعك به طيلة النهار.. أم هل يمكن لقميص ناعم أن يؤلم أكثر مما تؤلم حافة السكين التي اصطدمت بها هذا الصباح دون أن تعي ؟؟

يقول قميص سماوي خفيف :

حين رفعني من الأرض زالت الحيرة من ملامحه.. احتضنني بأصابعه وابتسم ناظرا إلي نظرة كلها نعومة.

يقول هاتفه :

لم أصدق نفسي حين نقلت إليه رنينا خافتا يتواصل في هاتفها.. كانت المرة الأولى لهذا اليوم التي يضغط فيها الأرقام العشرة بخفة دون أن يتوقف ليمسك بإصبعه ثم يلقيني على فراشه وقد بدا أنه قرر نسيان الأمر بأكمله.

يقول بائع الورد :

رسامة تشكيلية أو كاتبة لقصص الأطفال أو بائعة في محل للهدايا.. هذا ما خمنته من حرصه في التعامل مع الزهور وخشوعه أمام الألوان.. اسمها يحتوي على أربعة حروف.. أريج أو شروق.. خمنت من ذلك اللحن الذي يدندن به منذ دخل إلى المحل دون انقطاع.. حين تحب لا تخفي أيا من مشاعرها عمن أحبته حتى أنها تحتد عليه حين تغضب وتبكي كثيرا حين لا تكون معه.. ومع ذلك فهي " في عز ما هي عصبية ممكن تهدا مرة واحدة زي موج البحر ".. خمنت من ابتساماته القصيرة التي كانت تبدو عليه أحيانا كأنه يتخيل كيف ستبدو حين يفاجئها.. تعشق لون البنفسج الذي يشاركهما لحظات كثيرة.. خمنت من دموعه التي أمسكها حتى لا أراها حين تطلع باتجاه البنفسج كأنه يعتذر له..

تقول الشرفة :

هاهو قد عاد ليقف.. في يده القميص السماوي وباقة البنفسج.. بينما الباب المغلق بينهما لا يصعب فتحه على طفل.. هل حين يعشق البشر يكونون أضعف من الأطفال..

لو أهبط إليه لدقيقة لكشفت السر ؟؟

يقول سلم البناية :

أتزحزح قليلا إليه ربما لأنني قد اشتقت إلى خطواته الدافئة الطائرة كخطوات طفل.. أو ربما ليكون لي دور مثل الآخرين..

يقول البنفسج :

أهتز في يديه كثيرا حتى يلتفت إلي فأخبره بما أسرت لي به الشرفة الطيبة.. لكنه يظل متطلعا في شرود إلى الطريق مرة وإلى السلم الذي يقترب مرة مدندنا بصوت خافت بنفس اللحن..

تقول هي :

أختبئ خلف باب الشرفة.. تلك التي فاتني تماما أنها ستكون الوحيدة التي ستراني وأنا أفعل هذا.. وفاتني أنها بالطبع ستقوم بهذه التصرفات الطفولية فتعطيني ظهرها متصنعة عدم الاهتمام وتظل متطلعة إليه وهي تداري ضحكتها اللعوب بينما أختبئ خلف بابها المغلق ولا أمل من الإلحاح عليها ألا تذكر له شيئا.. سأغسل أرضيتك يوميا وأملأ أركانك بالبنفسج والنعناع والريحان البلدي

وأحضر لك قفصا من الكناريا.. ثم إنني سأروي لك كل ما يحدث بيننا ولكن بربك توقفي عن النظر إليه هكذا حتى لا ينكشف كل شيء.

يقول قميص سماوي خفيف :
كم أحب تلك الأشياء التي يبرع البشر في أدائها.. والتي بسببها لا تستطيع باقي الكائنات الأخرى أن تصير بشرا فنحن حتى لم نفهمها بعد.. أنا مثلا لم أفهم كيف ينتظر تحت شرفتها لساعات دون أن يحاول الصعود إليها منتظرا قميصا سماويا ليحرضه.. كما لم أفهم لماذا اختبأت هي عنه وهي تفك المشبك الصغير باسمة.. لتتركني أسقط هكذا فوقه تماما.

المسافة بين الطاولتين

رجل وحيد يجلس على طاولة في ذلك المطعم الشهير يأكل البيتزا..
امرأة وحيدة تجلس على طاولة في ذلك المطعم الشهير تشرب عصير البرتقال..

الرجل والمرأة متواجهان تفصلهما عشر خطوات وتمثال صغير من الرخام عليه شعار المطعم الشهير.

رجل وحيد يتذكر أنه حين كان هنا في الشتاء الماضي لم ينتبه إلى ما يأكله حتى اكتشف أنه قد أتى على ست قطع كاملة من البيتزا دون أن يدري.. بينما هو الآن لا يشغله إلا عد القطع التي أكلها والقطع التي مازالت تنتظر في صمت بينما تبرد تدريجيا.

امرأة وحيدة آلمها أنه حين انسكبت بعض القطرات على طرحتها لم ينتبه أحد أو يضحك أو يمد لها يده بمنديل صغير أو حتى يقول " اللي واخد عقلك ".. لوهلة اعتقدت أن تلك القطرات لم تنسكب أصلا ولكنها حين مست طرف طرحتها المبتل علقت بأن هذا الركن من المطعم الشهير ضعيف الإضاءة نسبيا.

رجل وحيد يقسم إن الفتاة التي رآها قبل يومين تشبه أميرة تماما.. لا هي ليست تشبهها وإنما هي.. هي ذاتها تنظر إليه من نافذة سيارة هيونداي

مسرعة وتبتسم ابتسامتها القديمة التي لا تملكها امرأة في العالم.. هو يعرف أن ذلك غير منطقي بالمرة لأنه متأكد أن أميرة الآن في كندا وأنها حتى لو رأته فإنها لن تبتسم له وإنما ستتظاهر بالنظر إلى المحلات ثم تلتفت إلى زوجها وينشغلان بالحديث في أي موضوع.. هو يعرف ذلك لكنه من يومها لا يستطيع النوم إلا بعد استخدام المنوم الذي نصحه به صديقه الطبيب النفسي بالإضافة إلى قراءة جزء من القرآن.

امرأة وحيدة أغمضت عينيها بقوة وقد تأكدت من سخافة الفكرة.. هي لن تصحب أختها الصغرى لمقابلة حبيبها الذي يمكن أن يصطحب معه أحد أصدقائه.. كان ذلك اقتراح الأخت الصغرى بينما أبدت هي ترددا في البداية لكنها الآن سوف ترفض بالتأكيد.

رجل وحيد يتذرع بهواء التكييف البارد فيزيح طاولته إلى الأمام بمقدار خطوة واحدة ثم يجلس وقد شعر بالتحسن.

امرأة وحيدة تنزعج من أشعة الشمس التي بدأت تسقط على مكانها من النافذة الزجاجية فتزيح طاولتها إلى الوراء بمقدار خطوة واحدة ثم تجلس وقد أحست بالهدوء.

الرجل والمرأة قد تتلاقى عيونهما إذا رفعا وجهيهما في لحظة واحدة.. لكن ذلك لن يحدث كما أنهما لحسن الحظ لن يعلما ذلك حتى لا يشعرا بالإحباط الشديد.

رجل وحيد يدرك أنه قد أعاق الناس عن المرور بين طاولته والتمثال الرخامي فيزيح طاولته إلى الوراء بمقدار خطوة واحدة.

امرأة وحيدة يمكنها أن ترى من مكانها الجديد شابا وفتاة صغيرين يضعان كتبهما على الطاولة ويتبادلان الحديث والأصابع وحين يضحكان تلاحظ أن ضحكتهما واحدة تقريبا.. هي تعرف أنها ليست شخصا سيئا أو تكره أن ترى أناسا سعداء ولا يشاركونها وحدتها وإنما هي فقط لم تشعر بالارتياح في هذا المكان لذلك أزاحت طاولتها إلى الأمام بمقدار خطوة واحدة.

الرجل والمرأة متواجهان تفصلهما عشر خطوات بينما تراجع التمثال الرخامي الصغير خطوة للوراء في محاولة لإعطائهما فرصة أخرى.

شاشة زجاجية تصلح كحد فاصل

- 1 -

عندما نظرت باتجاهي _ مسددة نظرتها الحارقة إلي عيني مباشرة _ وصرخت فجأة.. تلك الفتاة التي ترتدي الفستان الأسود الذي يرتفع لما فوق ركبتيها.. انخلع قلبي.. كأنني أنا الجاني..أو المحقق الذي قام بالتحقيق في الجريمة.. وقيدها ضد مجهول.. كان في نظرتها كلام كثير.. يعادل نصف " خريف الغضب ".. أو ثمانين حلقة من " شاهد على العصر ".. حيث يتحدث السياسيون بعمق.. في الفترة الزمنية التي تسبق قيامي بتغيير المؤشر إلى قناة الأغاني الأجنبية.. لكنني لم أشعر من قبل بوخز الضمير.. فلماذا هذه المرة ؟..

فاصل :

كلنا يمر بمثل هذه الأيام.. حين يتوقف الهاتف عن إصدار الرنين بلا أي سبب.. وتتوقف الأسماء المحببة عن الظهور فوق شاشته الصغيرة.. حين يتوقف باعة الجرائد وبواب العمارة وسائقو التاكسي عن مناداتك باسمك المفضل.. حين يزداد انتباهك لدقات الساعة وأصوات آلات التنبيه الآتية عبر الشرفة التي لم تفكر في فتحها.. ويقل مللك من الإشارات الحمراء وتأخر السندوتشات التي طلبتها في محل الوجبات السريعة.. قد تأخذ وقتا حتى تبدأ

في الشعور بأنك لست على ما يرام فعلا.. وهذا ما سوف يجعلك تستغرق وقتا قبل أن تجيب على السؤال التقليدي " عامل إية " بإجابة تقليدية مماثلة " الحمد لله.. كويس ".. ليس المؤسف أن هذا الوقت هو كل رد الفعل الذي سوف تقوم به.. ولكن المؤسف أنك قد لا تشعر أنك في حاجة إلى القيام برد فعل من أي نوع..

– 2 –

الطفلة التي ابتسمت لي وهي تحمل الزهور الملونة أمام طائرة الرئيس.. كانت عيناها فارغتين تماما من الكلام.. مثل تترات برنامج صباح الخير يا مصر .. ترى هل هذا هو ما يدفعني إلى تذكر تلك الفتاة التي ترتدي الفستان الأسود الذي يرتفع لما فوق ركبتيها.. والتي زلزلتني حين صرخت في داخلي.. بعينيها أولا.. في جنازة عبد الناصر..

فاصل :

حين أغسل وجهي في الصباح أتركه طويلا تحت سريان الماء.. لعله يزيل العرق وآثار النوم وبقايا أحلام الأمس.. بزوجة أقل سمنة وتجار أقل جشعا ومديرين أقل فسادا وملابس جديدة وخبز بقليل من العيوب وأتوبيسات عامة بلا نشالين.. النشالون تحديدا يأخذون وقتا أطول في الغسيل..

- 3 -

لماذا أصبحت هذه الفتاة تطاردني.. تسير أحيانا ببطء خلفي مثل ذلك المخبر الذي ظل يتبعني حتى صعدت إلى المنزل في تلك الفترة التي ظللت فيها دون أن أحلق لحيتي لفترة طويلة.. بينما تركض أحيانا أخرى بعنف مثل اللص الذي طاردني في الشارع المظلم الموازي لسور المترو حين عدت في ساعة متأخرة من الليل.. أنا لم أقتل أحدا.. ربما كان هذا هو السبب؟؟..

فاصل :

بعض الموظفين الذين حملهم أتوبيس المصلحة صباح يوم الاستفتاء على تعديل الدستور.. لم يكونوا يعلمون ما الذي يفترض أن يقوموا به.. البعض كان يظن أنهم ذاهبون لانتخاب نجل الرئيس الحالي رئيسا للبلاد.. بينما كنت أنا قد اتخذت قرارا صارما.. قررت أن أتغيب اليوم عن العمل.. ربما أتمكن من النوم بعض الوقت.. لأستيقظ في ساعة نهارية متأخرة شاعرا بالصداع ومقلبا في قنوات التليفزيون كما يفعل أبناء الأثرياء..

- 4 -

كانت تبدو حقيقية تماما هذه المرة.. لدرجة أفقدتني لبرهة السيطرة على أصابع يدي الممسكة بجهاز التحكم عن بعد.. فكرت أنها تبدو حقيقية أكثر.. هذه الفتاة التي لا تحمل سوى اللونين الأبيض والأسود.. ربما تحمل جهازا مماثلا للتحكم عن بعد.. ربما تخرجه الآن - وقد ضاقت ذرعا بنسياني للدور وعدم قدرتي على استيعاب الشخصية.. فتغير القناة.. فكرت أنها قد تقلب على قناة الأغاني الأجنبية.. ضحكت من قلبي وأنا أنظر لجدران غرفتي التي سوف تستند عليها سيلين ديون في نعومة.. والأريكة الطويلة في آخر الصالة التي سوف ترتاح عليها جينيفير لوبيز بساقيها العاريتين..

ورقة مقطوعة بحب

ورقة مقطوعة من النوتة الموسيقية.. تمنع العازف من إكمال عزفه كلما وصل إلى هذا الجزء.. فينظر إلى أصابعه.. تلك التي بدأ يسيل منها الماء.. بإشفاق..

.....

حين عدت بالأمس كان البيت صامتا تماما والجميع غارقين في النوم.. أراحني هذا السكون كأنني أخشى أن يراني أحد.. لو تحدثت أمام أحد لن أستطيع أن أخفي ارتجاف صوتي.. هل ارتجف صوتك أنت أيضا في الليلة التي رأيت فيها " أجمل بنت في الدنيا " ترقص بفستان أبيض عاري الكتفين والظهر معانقة رجلا لا تعرفه.. بينما تراقب أنت ابتسامتها والطريقة التي تغمض بها عينيها دون أن يراك أحد – وأنت المعروف بغيرتك الشديدة – وتكتشف أنها لم تعانقك أنت نفسك من قبل بفستان عار كهذا ؟؟
شكل الصالة ليس طبيعيا.. في الضوء القليل استطعت أن أرى أن قطع الأثاث قد نقلت برفق إلى جانب واحد منها بينما في الجانب الآخر تستقر دواليب كبيرة تمتلئ بزجاجات العطور.. بالتدريج فهمت أن أبي لابد قد نقلها إلى هنا لأنه سوف يقوم بتنظيف المخزن السفلي غدا .. تأملت الدواليب طويلا.. العشرات من الزجاجات الصغيرة المتشابهة مصفوفة بحرص بالغ.. ذهبية ووردية وبنية داكنة وشفافة.. تحمل قصاصات ورقية صغيرة.. أتأمل الكتابة.. أعرف خط أبي من خط أعمامي الذي يعملون معه.. فل.. مسك أبيض.. لافندر.. خزامي..

ياسمين.. أداعب إحدى القصاصات فتنتزع من الزجاجة في يدي.. أنظر إليها باستغراب.. أتأمل الزجاجة العارية بينما أكتم ابتسامتي.. أبي سيغضب كثيرا.. لكنه ليس هنا الآن.. أمد يدي إلى قصاصة ثانية فأنزعها.. لماذا تحتاج العطور إلى أسماء.. قصاصة ثالثة.. رابعة.. خامسة.. يتسارع تنفسي وتهدر بداخلي اللهفة.. سادسة.. سابعة.. تشعر ذراعي بالتعب وتمتلئ رئتي النشوة والأرض تحت قدمي بالقصاصات الصغيرة.. بينما لا أستطيع التوقف..

أنظر أخيرا إلى الدواليب.. زجاجات صغيرة ملونة متساوية.. أضحك بصوت عال دون خوف من أن يستيقظ أحد.. لم يسمح لي أبي بتعلم العزف على البيانو فلألعب قليلا..

أفتح إحدى الزجاجات.. ينبعث العطر خفيفا نديا.. هذا ياسمين.. أفتح زجاجة أخرى.. رائحة ودود حالمة.. هذا لافندر.. أمتلئ بعطر مهيب شجي ينساب من زجاجة ثالثة.. هذا مسك.. هل كان يجب أن تغضب إلى هذا الحد لأنني لا أقول لها " وحشتيني " بطريقة معينة ولا أحاول أن ألمس نهدها ونحن في السينما.. هل كانت ترى أن هذا لم يكن حبا.. وهل كان ؟؟

أواصل فتح الزجاجة تلو الأخرى.. أشعر بخفة كأنني أنفتح وأتصاعد مع كل زجاجة.. لم لم أتمن أن أتحول إلى عطر.. ترى أي العطور تلائمني.. ماذا أنتظر..

يا غصن نقا مكللابالذهبأفديك من الردى بأمي وأبي

تتحول حركتي بين الزجاجات إلى ما يشبه الرقص.. أمد يدي إلى الزجاجة فأحتضنها وأدور بها في رقصة عشق قصيرة قبل أن أنزع سدادتها فتبوح لي باسمها السحري الذي اختارته لنفسها ولم يختره لها أحد..

إن كنتُأسأت في هواكم أدبي فالعصمة لا تكون إلا لنبي

أغني فتمتلئ سماء الغرفة بسحب من روائح عديدة متداخلة وقوية حد الإيلام فتنفجر دموعي وأشعر بالرغبة في الصراخ.. هل مررت يوما أمام محل لبيع العطور وحلمت أن تفتح كل الزجاجات .. بالطبع حلمت.. كيف تحرم نفسك حتى هذه اللحظة من رؤية كهذه.. كم حلما تنتظر أن يتحطم وكم بنتا تريد أن تراها تراقص رجلا لا تعرفه بفستان عار قبل أن تحقق ذلك..

.....

لأنه يعلم.. ذلك الشاب.. أن لكل عازف أمنية واحدة.. وهو قد منحها بتسرع للبنت التي تقف وحيدة على كوبري قصر النيل.. فهبط الأسدان.. في ملابس السهرة.. يراقصانها..

.....

لو صادف نوح دمع عيني غرقا *أو شاهد لوعتي الخليل احترقا*

أو حملت الجبال ما أحمله *صارت دكّاً وخرّ موسى صعقا*

تقترب يدي من زجاجة أخيرة عديمة اللون.. أدور بها طويلا.. هذه المرة سأختار لها اسما.. اسمك " يمام أبيض ".. ألم أقل أنها لا تحب أن نختار لها الأسماء.. تنفتح في يدي فجأة فأشهق بقوة.. فيما يتصاعد عطر أليف دافئ لم أعهده من قبل.. قد يشبه رذاذ الندى حين تأخذ نفسا عميقا في شرفتك وقت الفجر .. أو العناق الأول المتردد لفتاة تحبها كما تحب السحاب الأبيض ولم ترها من قبل إلا مرتدية حجابها .. أكتشف أنني لا أزال أبكي وأدور في الهواء.. هكذا قد تفرغ الزجاجة دون أن أتعرف على سر هذا الوهج الذي يشع منها ..ليس هذا من الورد أو الفاكهة التي أعرفها.. إنه عطر حنون يحمل البشرى ويمس القلب من الداخل.. هل شعرت يوما بقلبك يمس من الداخل.. من أين أحضر أبي هذه الزجاجة.. دون أن أستطيع التوقف أنظر إليها مدهوشا.. بينما تتراجع سحابات العطر وتتمدد هذه الرائحة وتعلو لتزيح السقف والجدران والنوافذ والشوارع بالخارج بعيدا.. لا مثيل لاتساع الصالة ولا لروعة هذا العطر فماذا يكون.. هل هذه أصوات هديل يمام وخفقان أجنحة.. أنظر إلى أعلى.. لاشيء..

.....

متى يدرك ذلك العازف أن تلك الورقة المقطوعة قد قطعها عازف آخر.. كانت أمنيته أن يعزف كل من يأتي إلى هنا.. لحنه الخاص..

.....

أضيء كل المصابيح.. أنظر إلى كومة القصاصات الصغيرة بفزع.. لم أتصور أن تكون بهذا العدد.. أنحني وسط كومة الورق.. أقرأ في عجلة الحروف التي لا تكاد تبين.. ليست هذه.. ولا هذه طبعا.. أمتلئ بالهياج.. بعض القصاصات ابتلت من الدموع أو العطر المنسكب أو داست عليها أقدامي بينما أرقص وأدور بغير وعي فذابت حروفها في كتلة هلامية سوداء .. أحاول تفسيرها ببطء ثم أقذفها بعيدا في غضب.. في طرف الصالة الممتلئة بالضوء وقف أبي مدهوشا.. كيف سأفسر ما حدث.. وهل سأسأله هو عن مصدر الزجاجة.. يغمرني العرق الساخن وتتسارع أنفاسي المغمورة في عطر سحري أوشك على التبدد..
أعاود الانحناء والبحث..

شجرة الابتسامات

شجرة الابتسامات الصغيرة كانت على أول الشارع.. زرعها ولد تحت شرفة حبيبته وتركها ليرويها المطر والضحك المتصاعد من الشرفات والنوافذ.. نمت الشجرة وكانت الوحيدة من بين أشجار الشارع التي لا تصفر أوراقها وإنما تظل خضراء ناعمة مغسولة طيلة فصول السنة.. ولكنها لم تكن تحمل زهورا..
الولد الذي زرع الشجرة الصغيرة لم يعرف ماذا يقول لحبيبته.. كان ينظر إلى فروعها الخضراء النقية في إحباط باحثا عن لون واحد هنا أو هناك.. حتى لو كانت في أعلى الشجرة فهو مستعد لأن يتسلق ويقطفها بدلا من أن يذهب إليها خاوي اليدين كما يفعل في كل مرة.. كان يلامس جذعها الخشن برفق ويهمس لها.. ولكنه لم يعد أبدا إلى حبيبته بوردة واحدة..
– وبعدين ؟؟
يدهشني أنه لم ينم.. كانت عيناه تلمعان ويمسك بذراعي في شغف لكي أكمل.. أجدني أتساءل لماذا يفرح الآباء حين ينام أطفالهم في منتصف الحكاية مع أن هذا لا يعني سوى شعورهم بالملل ؟؟

.....

البنت التي كانت تتأمل الشجرة الخضراء كل يوم كانت تحبها كثيرا.. لدرجة أنها رسمتها أكثر من مرة في كراساتها بل وألفت أغنية قصيرة عنها.. كانت تحب أخضرها الزاهي كأنها زهرة خضراء عملاقة.. وكانت تحب الولد أكثر من أي

شيء.. يكفي أنه يأتي إليها بابتسامة ناعمة على وجهه وينادي اسمها بطريقة تحبها كثيرا في الوقت الذي تشكو فيه كل صديقاتها من عبوس عشاقهم وأصواتهم العالية ولا يصدقن كل أعذارهم ويشرن إلى حبيبها فيشاركونهن الدهشة من ذلك الولد الفقير الذي مازال قادرا على أن يأتي إلى حبيبته بابتسامة جديدة كل يوم رغم أن بائع الابتسامات الوحيد في المدينة قد غالى في أسعارها مؤخرا حتى وصلت إلى ست حبات من النعناع..

– وبعدين ؟؟

كنت قد سمعت هذه القصة من قبل عدة مرات لكنني كنت أحب طريقته في الحكي.. كان يداعب شعري برفق بينما تأخذه نظرة شاردة للأمام.. كأنه ينظر إلى الشارع والشجرة الصغيرة التي تحمل الابتسامات والولد والبنت.. هززت ذراعه فالتفت.. انتهزت هذه الابتسامة على وجهه كي أسأله :

– انت كنت بتكتب قصص زمان يا بابا.. مش كدة.. بطلت تكتب لية ؟

–مين قال لك ؟

– ماما قالت لي ..

– طيب نام .. انت اتأخرت..

.....

أستيقظ تلقائيا في السابعة والنصف.. ألقي نظرة سريعة على المنبه فأكتشف أنني لم أقم بضبطه بالأمس إذ ارتميت منهكا على الفراش.. أمنح ابتسامة امتنان لساعتي البيولوجية وأذهب لغسل وجهي ثم ارتداء ملابسي ثم...

أتوقف فجأة حين ألمح صندوقا من الكارتون تحت فراشي لم أره من قبل.. أسحبه فتتجمد يداي في مكانهما.. كان ممتلئا بكتب يوسف إدريس ونجيب محفوظ ويحيى حقي ملقاة في فوضى تدل على تلك اليد الجاهلة التي ألقتهم هكذا كالجوارب القديمة في صندوق تحت الفراش.. جريت إلى الصالة.. كان الرف العلوي في المكتبة قد استقبل طقم الشمعدانات المذهبة الخاصة بزوجتي.. تعتز هي بهدايا والدها من زمان فلم الاستغراب.. ولكن هكذا ؟؟.. أعد لنفسي سندوتشا خفيفا على الواقف وكوبا من الشاي أتركه في منتصفه حين تحين مني التفاتة جديدة للرف العلوي الذي يخرج لي لسانه في ظفر.. أصفع الباب خلفي فترتج الصالة.. أتمنى في داخلي أن يمتد الارتجاج إلى الشمعدانات فوق الرف فينتهي أمرها..

.....

استقبلت النبأ ببطء شديد.. الهدوء الذي تحدث به طارق والجمل القصيرة التي استخدمها والبرودة التي تملأ فناء المدرسة قاموا بمهاجمتي دفعة واحدة.. يارا.. راحت مدرسة تانية.. فجأة كدة ؟.. أيوة باباها ومامتها عزلوا.. هاه حتلعب في الفسحة مع فريقي ولا فريق عمر ؟؟

طوال الحصص الثلاث تمر اللحظات بطيئة.. للمرة الأولى لا أتمنى أن يسألني المدرس أي سؤال أو أن يتوقف عن الشرح فجأة ويلتفت إلي قائلا : كنت باقول إية ؟.. في الفسحة أستند إلى البوابة الحديدية المفتوحة موجها بصري للخارج.. لماذا عزّلوا.. لماذا يعزّل الناس.. لماذا يتركون بيوتهم وكل الناس

الذين قد اعتادوا عليهم فجأة.. هل الرحيل ممتع.. هل يمكن أن أكون سعيدا لو تركت غرفتي ونافذتي المطلة على مكتبة عمو خيري والشارع الذي تحفه الأشجار وكوبري المترو " الزحاليق " الذي كنا نتسابق عليه بالدراجات أنا وطارق ويارا.. لماذا لم تنتظر فقط حتى يتم أبي حكاية شجرة الابتسامات فأحكيها لها في طريق العودة من المدرسة كما نفعل دائما..
يفزعني صوت الجرس.. لم أحب سماعه أبدا ولكن للمرة الأولى يفزعني أنني لابد أن أترك مكاني عائدا إلى الفصل..

.....

- ولا شمعدانات ولا حاجة.. ماتضحكش على نفسك..
- يعني إية ؟
استدار ليواجهني..
- مراتك طول عمرها كدة.. مابتهتمش بالكتب وشايفاها زاحمة الدنيا ع الفاضي.. مفيش جديد..
اهتزت يداي فضممتهما إلي بقوة.. لم أتوقع أن يدخل إلى هذا العمق.. لكنه ظل ينظر إلي مكملا :
- انت اللي كيانك اتقلب من ساعة ما شفت نادين تاني..

.....

للمرة الأولى أكتشف أنني موسوس قليلا فيما يخص المذاكرة.. حين رأيتني أعيد استرجاع ما درسته الأمس ثم اليوم أكثر من مرة.. كل أصدقائي يقولون أن ذلك الشعور يأتيهم أحيانا.. شعور بأن " مش مذاكر حاجة ".. تركت الكتاب متوجها إلى النافذة.. كانت مكتبة عمو خيري لا تزال هناك.. لم ترحل.. ضربت الأرض بقدمي كعادتي حين أصاب بالتوتر حين تذكرت ابتسامته ذلك اليوم..

- مقلمة بناتي ؟.. انت مش قلت لي معندكش اخوات بنات ؟..
- أيوة بس أنا عايزها .. ماما.. قالت لي عايزاها..
- عايزة مقلمة ؟؟
- .....

ترى هل تذكرت أن تأخذها معها حين رحلت أم تركتها هنا.. لو كانت أخبرتني قبل أن ترحل كنت سألتها.. ترى هل يمكن أن تنساني أنا أيضا وتنسى كل من كانوا هنا كما ننسى دروس العلوم ونصوص القراءة بمجرد أن تنتهي الامتحانات.. وقتها بدا لي النسيان مؤلما جدا.. أن ينساك أحد معناه أن يطردك من حياته.. من كل حياته حتى من تلك اللحظات التي يشرد فيها من نافذة قطار.. ربما يشبه أن تطرد من الفصل وتضع وجهك في الحائط.. تاركا ظهرك مكشوفا للردهة الباردة وتعليقات المدرسين بينما تتمنى العودة الآن إلى مقعدك الذي تكتشف الآن أنه أجمل من أي مكان آخر.. ترى هل يمكن أن أراها أو حتى أعرف أين تسكن الآن..

أذن المغرب فأغلق عمو خيري الفاترينة الزجاجية وتوجه إلى المسجد.. أشار إلي.. ارتديت حذائي ونزلت.. عبرت الطريق لأجده في انتظاري ممسكا بدراجة صغيرة بدا لونها الأصفر مألوفا..

– بص يا بطل.. أنا رايح أصلي وراجع.. يارا كانت ناسية العجلة بتاعتها في المحل ودلوقتي هي ومامتها جايين ياخدوها.. ممكن تستناهم بس على بال ما أصلي ؟..

.....

برودة شارع 26 يوليو تذكرني بأيام جميلة.. أسير ببطء مستقبلا الهواء البارد على وجهي.. هواء الزمالك المحمل بالحكايات.. خطر لي أنني لو أغمضت عيني قد يمحو هذا الهواء السنوات العشر الماضية وزوجتي والشقة الجديدة والدهون التي أضيفت إلى وزني.. وقد أشعر ساعتها بربتة خفيفة على كتفي وأفتح عيني على نادين وهي تشير إلى شلتنا القديمة المنتظرة أمام باب ساقية الصاوي وتخبرني بأن " حفلة وجيه خلاص حتبدأ قوم ".
نعم حالي اتقلب منذ رأيتها ثانية منذ أيام.. مع زوجها القاص أحمد زيني.. كانا خارجين من الساقية وكان أحمد يحمل عدة أكياس تمتلئ بالكتب.. توقفت عن الحركة وتابعتهما وهما يصعدان سلم كوبري 26 يوليو ويتبادلان التعليقات والضحك على حيرة أحمد في حمل الأكياس التي تحمل أسماء مكتبات عديدة.. انتي مجزرة كتب.. ربما قال لها ذلك هو أيضا.. ربما يتجهان إلى وسط البلد.. ربما لديهما مشاوير أخرى لهذا اليوم.. في مسرح روابط أو دار ميريت.. ربما لن يرى أحد منهما طبيبا نفسيا في حياته.. أو يعاني من كوابيس تأتيه حين يواجه أي أزمة ولو صغيرة.. ربما سيمكنه أن يتخفف بمجرد أن يبوح للآخر.. سيب كلامك يخرج لحد فاهمك وبعدين يرجع لك تاني كإنك بتجدد مية حمام

سباحة.. حيرجع لك جديد ونضيف وكإنك لسة مازعلتش.. ربما قالت له ذلك يوما.. وربما لن يدرك أحدهما شعور من يحمل كلامه بداخله كالورم.. كالماء الفاسد الذي لا يكف عن التراكم..

– يا نهار اسود !.. مصطفى.. انت فين يا ابني انت ؟!

أجفل وألتفت.. أصيح ونتعانق بقوة..

– أنا في الدنيا..

– مابقتش تيجي ولا تظهر في أي حتة..

كان ينظر إلي بشغف كأنه يحاول أن يصدق أو يتأمل مرور السنين على وجهي.. ربما لاحظ أنني كنت أنظر إليه بشغف مماثل..

– أبدا أصلي غيرت سكني وخدت شقة بعيدة شوية..

أمسك بذراعي بقوة ..

– تعالى يا عم.. فيه قعدة النهاردة في الساقية والشلة كلها هناك.. يالهوي.. دول حيتجننوا لما يشوفوك جاي معايا!

.....

أم البنت ضايقتها تلك الشجرة المواجهة لشرفتها.. والتي – من بين كل أشجار الشارع – لا تحمل زهورا على الإطلاق في أي وقت من السنة.. هي لم تكن تعرف أن تلك الشجرة كانت هي السبب في أن الملابس المنشورة في الشرفة تجف سريعا وحين تجمعها تجدها مليئة بعطر جميل وهي كذلك السبب في تلك الابتسامة التي ترافقها أثناء إعداد الطعام والتي تجعل طعامها أشهى بكثير مما

اعتادت.. هي لم تكن تعرف لذلك طلبت من زوجها إزالة هذه الشجرة فأحضر فأسا ضخما وعاونه كل أولاد الشارع الذين يحقدون على الولد صاحب هذه الشجرة الذي وقف يتابع المشهد من بعيد عاجزا عن التدخل.. اهتز الجذع الضخم بعنف تحت الفئوس المتلهفة على إسقاطه وتركت الطيور المفزوعة أغصانها وأصبحت تحلق فوق الشجرة في دوائر إلى أن تهاوى الجذع بعرض الطريق لتظهر شرفة البنت بوضوح للولد ويرى كل منهما وجه الآخر المذهول وعينيه المليئتين بالدموع..

– وبعدين ؟؟

– انت ما نمتش لية ..

أعتدل :

– هو انت لية ما بقتش بتنام جنب ماما ؟

أجده يبتسم :

– أصلي بقى بيجيلي كوابيس كتير.. فقلت أنام جنبك عشان انت راجل.. لو جالي الكابوس تشوفه وهو بيتسحب وتضربه.. تعرف إني بافكر أرجع أكتب تاني ؟

– بجد ؟

– للدرجة دي الموضوع دة يفرحك ؟

– أصل انت أكيد حتكتب حاجات حلوة قوي.. وحاقرا اسمك في الجورنان.. وحاخده معايا المدرسة عشان أخلى اصحابي يقروا القصص بتاعتك.. وحابعتها كمان ليارا على عنوانها الجديد عشان مكانتش مصدقة إنك كنت بتكتب قصص أحلى من اللي بناخدها في المدرسة..

يضمني إليه.. أشعر باهتزاز يديه من الإثارة..

– بابا.. ماما بتعمل إية لما ييجي كابوس ؟

يضحك :

– ماما ؟.. ماما خوافة قوي.. أول ما تشوفه بتطلع تجري !..

أضحك وتدمع عيناي.. كانت المرتبة الصغيرة تهتز بشدة.. وكانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها يضحك بصوت عال هكذا ولا يستطيع التوقف عن الضحك كأنه يضحك لأول مرة.

الذي يحدث عندما لا تستطيع كتم سعادتك

" الذكريات زي الريح الشتوية لما بتيجي مهما كانت قوتها مش بتجرح.. هي بس بتطوح الحاجات الحلوة من قدامنا.. الحاجات الوحشة بتبقى دايما تقيلة فبتفضل..

السبت 5 \ 12 \ 2001 "

.....

بالأمس كانت أولى مرات ذهابي للأوبرا..
بالأمس كانت رؤيتي للأوبرا من الداخل أقل الأشياء التي حدثت لأول مرة من حيث الأهمية..
كانت تجلس في كافيتيريا المجلس الأعلى للثقافة بالأوبرا.. تشرب الكابوتشينو وتنشغل بالاستماع إلى شاب يعزف الجيتار لأصدقائه على منضدة مجاورة ومتابعة قطة صغيرة تقترب من منضدتها بحذر.. الإضاءة الخافتة تمس وجهها الناعم والمقعد الخالي بجانبها يبتسم ويغمزني بعينيه في تحريض واضح.. كما أن الوقت كان قد فات للتساؤل.. كانت هذه الفتاة ذات النظارات الطبية الرفيعة والابتسامة العبقرية قد امتلكتني. ولكن ماذا لو لم أستطع كتم سعادتي فبكيت ثمار مشمش صغيرة أو هممت أن أخبرها بأن " مساء الخير " فانطلقت من فمي المفتوح فراشات كثيرة وردية اللون بدلا من الحروف.. قد تبتسم حينها وتجيبني بسحابة قرمزية أو ببعض الأصداف أن " مساء النور " وتدعوني للجلوس.

تقدمت إليها بخطوات بطيئة..

.....

" في أول حدوتة بتبقى عامل زي اللي بيشوف فيلم لأول مرة..بتبقى مشدود قوي ومش بتفكر غير في النهاية وإية اللي حيحصل..
في تاني حدوتة بتشوف الفيلم للمرة التانية.. بتندهش من كل التفاصيل وبتستمتع بكل الحاجات اللي فاتتك.. بتسيب نفسك خالص وبتتابع انسحابك واحدة واحدة لموج حتكتشف لأول مرة روعة درجة الأزرق اللي في لونه واللي بتزيد كل ما تتقدم.. بس بتفضل كل حاجة عفوية لأنك في المرة دي برضه مش عارف النهاية..

الأحد 3 \ 6 \ 1998 "

.....

بدأ الأمر حين رأيتها في إحدى الأمسيات الأدبية في مكتبة البلد المواجهة للجامعة الأمريكية حيث أذهب دائما.. لأول مرة أهتم بفتاة ضئيلة الحجم ذات صدر ضامر تلقي قصة.. لكنني أدركت أن لكل قاعدة استثناءات.. حين لسع طرف السيجارة المشتعل أصابعي بعد أن وصلت إلى نهايتها دون أن أقربها.. وضعتها جانبا.. وبدأت في التصفيق بحماس.. تحول سريعا إلى صدمة حين رمقني الحضور بمزيج من الاستنكار والسخرية..

– القصة لسة ماخلصتش !..

بدأ الأمر من جديد حين كنت أقف أمام المكتبة أدخن بشراهة وأنظر إلى الطريق في غضب..

– بسسس .. مصطفى مش كدة ؟..

التفت.. يارب السماوات !!.. ألقيت بالسيجارة من فوري تجنبا للمزيد من حروق الأصابع.. كان من الطبيعي أن تبتسم لردة فعلي السريعة..

– أنا آسفة على اللي حصل النهاردة ..

– أنا اللي آسف..

– أنا سما.. بس بجد انت كنت بتصقف قبل ما أخلص لية ؟

هذا الاسم لا تحمله إلا الأميرات.. فأي أميرة أنت.. وفي أي حكاية.. ربما تحمله بعض الملائكة أيضا.. تخيل معي.. ملاك اسمه " سما " يكتب القصة ويحب القهوة الزيادة وحين يبتسم يغمر جروح قلبك بالورد الأبيض..ترى ماذا لو قرر هذا الملاك أن يعشق.. هل سيزداد فبراير دفئا وتزهر أشجار التفاح فجأة ويتخفف الناس من أرديتهم الثقيلة ويلقونها جانبا.. نظرت إلى السويتر الداكن الذي أرتديه وابتسمت.. كان لابد أن أكذب :

– القصة عجبتني قوي.. فيها شجن جميل.. دي أكيد مش أول محاولة..

– أنا باكتب من خمس سنين..

نظرت إلى الطريق..

– النهاردة فيه حفلة لفرقة مزيكا جديدة في ساقية الصاوي.. حيقولوا فيها شوية أغاني من تأليفي.. تحبي تيجي ؟..

تتسع ابتسامتها فجأة فتنسحب الأرض بسرعة من تحت قدمي..

- بجد ؟.. أكيد..

نسير سويا.. الليل الأزرق وأصوات آلات التنبيه والأسر المتسكعة أمام الفتارين المضيئة والفتيات اللاتي يحملن الآيس كريم يزدادون ابتعادا كأنهم وهم.. للمرة الأولى لم ألتفت إلى العاشقين الذين يتسكعون بالعشرات في وسط البلد ولكنني للمرة الأولى أيضا كنت متأكدا أنهم ينظرون إلينا.. أتخيل أصابع يدينا وهي تتشابك في رقة فتزداد نعومة الإسفلت تحت قدمي كأنه موج من زهور..

.....

" أكتر حاجة بتسعدني لما حد يقول لك وحشتيني.. كإنه بيوصل لك وردة مني.. عارف إنك أول ما حتصدقي حترجعي لي فوق سحابة ورد.. ساعتها حاطلع الدموع من التلاجة.. وأجيب رجليا اللي كنت راميهم واحدة تحت السرير والتانية مش عارف فين.. وأعيط وأرقص للصبح ..

الخميس 17 \ 8 \ 2000 "

.....

عثرت بالأمس بينما كنت أرتب أدراج مكتبي على مجموعة من الأوراق القديمة.. مشاريع قصص.. قصائد لم أرض عنها.. خواطر كنت أتحدث فيها

عن أناس بأسمائهم فلم أنشرها.. لسبب ما كنت أعشق وقتها الكتابة بالعامية دون غيرها.. شردت في الحروف التي تعود لسنوات عديدة عميقا في الروح.. اكتشفت أننا لم نعد نعثر على أشياء جديدة.. إننا فقط نعيش نفس الأشياء من جديد ولكن بصورة مكبرة أو مصغرة.. أبتسم.. ولكننا لا نتعلم أبدا.. أتوقف طويلا أمام إحدى الأوراق :

" وقتها كنت حاسس كإني لامس الأرض بالعافية.. فيه حاجة ناعمة قوي بتشدني لفوق بعنف.. حاسس كإني لو سرحت شوية ممكن ألاقي نفسي باطلع على سلالم غير مرئية بتزحلق.. بتزحلق لفوق.. بفعل جاذبية السما !..
الثلاثاء 14 \ 1 \ 2003 "

حين وضعت الورقة على أنفي توقعت أن تغمرني رائحة الفل..

.....

شارع 9 في المعادي مكان رقيق يصلح للحب.. يكفي أنه أول الكائنات التي تطل عليها يوميا فتمنحه أولى ابتسامات الصباح التي يظل بها دافئا حتى نهاية اليوم.. ربما كان هذا ما يجعله يملؤني بإحساس مجنح بأن الأشياء غير القابلة للتحقق قد أصبحت أقل بكثير..
نسير وقد تشابكت أصابعنا.. كنت متأكدا أنني لو أغمضت عيني الآن ستفعل هي الأخرى مثلي.. وسيتفادانا سائقو السيارات والمارة والأشجار وستبتعد

الجدران وإشارات المرور والأرواح الوحيدة كي تفسح لنا الطريق.. لماذا لا أزال أناديها باسمها.. لا أذكر أننا قد صارحنا بعضينا بأي مشاعر.. هي تعرف.. أنا الذي كنت محتاجا إلى إخبارها.. ولكن ماذا لو لم أستطع كتم سعادتي فانكشف مكان القمر المختبئ في جيب قميصي أو نبتت لي أجنحة بيضاء..

تحت شجرة فل نزعت نظارتها برفق ومررت سبابتي على خدها الأيمن هابطا وصاعدا في تموجات ترسم " بحبك ".. رفعت رأسها إلي فجأة بينما كنت أضع نقطة الباء الثانية.. عيناها صافيتان شفيفتان كبحيرة عذبة فوق قمر بعيد عن مجال الجاذبية.. غاصت شفاهنا في قبلة طويلة لم تتوقف إلا حين سمعت صوت نهنهتها الخافتة..

- مالك ؟

دخلت في حضني وأغمضت عينيها بعنف..

- اوعى تسيبني..

.....

" سبب من الأسباب اللي خليتني أحبك :

تفتكري ممكن يكون شكله إية الطفل اللي باباه صوت بيانو.. ومامته الخط الموف اللي في قوس قزح ؟..

الأحد 9 \ 4 \ 2006 "

.....

تباغت جسدي رعدة خفيفة إثر ملامستي لنسمة باردة مفاجئة آتية من نافذة المترو.. أدرك أننا قد خرجنا من النفق فأتنهد بعمق.. أبتسم بنشوة صافية وأنا أتخيل جزيئات الهواء البارد وهي تطرد بابتسامة تشف هواء النفق الحارق المكتوم.. حين سألقاك هذه المرة سأعترف بأنني قد كذبت عليك مرة أخرى.. حين كنت أشاركك امتصاص قطع السكر بدلا من إذابتها في القهوة على مقعدين متقابلين في مكتبة البلد.. وسألتني بمرح :

– انت ماحطتش سكر خالص في القهوة.. حتشربها سادة ولا إية ؟!..

– ساعات باشربها كدة..

نتبادل الابتسام أنا وصورتك المنعكسة أمامي على زجاج المترو.. بينما قطعة سكر بيضاء أخيرة تذوب في روحي.. ببطء.

صدر للكاتب :

صحيان بطيء من حلم جميل ... (ديوان عامية)
عن دار اكتب للنشر والتوزيع 2008

وحصلت مجموعته القصصية " حارس ليلي للسماء " على المركز الثاني في المسابقة الأدبية المركزية لهيئة قصور الثقافة عام 2011 / 2012

.

E-mail: mero_12121212@yahoo.com
http://www.samazar2a.blogspot.com/